

ذاكرة محتلة (في دمشق)

لبانة هاني حسن

عندما تشيب الذاكرة في شباب الأجساد هذا يعني
شيئاً واحداً أن هناك متهم لن يغفر له ...

* إلى أول قارئ هذه الرواية

كل الحب، وأما بعد:

* إلى الجميع بلا استثناء.

* إلى الحاقد قبل المحبّ.

* إلى من لا يملك سوى قصيدة هجاء عابرة
وجدها على أحد الطرقات فرمى بها نحوي ...

* إلى من لم يكن قادراً على الوصول،

ف انتقص الواصلين الذين تأخروا.

* إلى من يرى أنه سبب في نجاحي وما أكثرهم
وأجهلهم بأنهم السبب... كل الاحترام لجنودي
المجهولين من عابرين ومحبين وأعداء.

نظرة :

رواية /ذاكرة_محتلة/
ذات أحداث غير واقعية نسبياً من ناحية الحدث
الرئيسي الذي بنيت عليه الرواية.
إلا أنها واقعية نسبياً من جهات أخرى...
وتركنا للقارئ حرية اكتشاف تلك الجهات
الأخرى بما يراه مناسباً لواقعه .

الكاتبة

الإنسان يمرّ بمحطات عديدة، منها ما يستوقفه قليلاً ومنها ما لا يلفت نظره، وهناك ما يترك فينا أثراً، نمر بالكثير من الأحداث المختلفة والغريبة، في برهة قد تتحول حياتنا من مسار لآخر، في لحظة ما قد نجد أنفسنا في جحيم هذه الحياة وفي لحظات أخرى في نعيمها ...

ربما لا نستدرك كل ما نمُرُّ به، ربما نعيش حياة ضمن أخرى ، أشياء صغيرة قد تقلب هذا الكيان، كيان هذا الإنسان الحالم، رغم علمه بأنّ الكلمة الأخيرة هي للقدر ..

تجول بنا المشاعر إلى أزقة التلاشي وتجول بنا أفكارنا إلى الفراغ ونتصارع كي نبقى....
 كي نحلم...تساؤلات كثيرة نطرحها وندرك أنه ما من إجابة...لا أجوبة مسبقة في الحياة تحصل على جوابك حين تعيش تساؤلاتك، لا يمكن أن نتفاداه، الحياة لا تعلمك بل تدفعك إلى التعلم، ربما أشياء صغيرة في حياة شخص قد تعني بلاداً في جغرافية كيانه...و في ذات الوقت ليست سوى رصيفٍ عابرٍ لغيره ...

كلمة بسيطة قد تكون لا شيء، وقد تكون لآخر
كل شيء، تلك الاختلاطات المبعثرة والتساؤلات
الحائرة تحيط بنا، ونمضي على أرصفة
الذكريات حيناً وفي شوارع الندم احياناً، نجول
في مدن كانت لنا أو بالأحرى كنا لها، لنجد أنفسنا
أصبحنا غرباء عنها، تلك التفاصيل التي لا تهلك
قد تكون محور عيش أحدهم، قد تكون سبباً في
نشوب حرب وكذلك سبباً في إخمادها ...
لا تتوقع، لا تتوقع فكل توقعاتك محض سراب لا
أكثر، وهم عابث ، طيف حائر بل وأكثر
الحياة مفاجأة مملوءة بالمفاجأة، تعلو...تدنو ..
وأنت تتمايل معها ليس إلا....

وفي لحظة قد تشب في داخلك أشياء ...
أقسم أن كل بحار الكون غير قادرة على إطفائها
أو إخماد لهيبها ...

أحياناً نحترف الصبر ليس لشيء لكن لأننا لا
نقدر على التعبير عما حصل أو يحصل ...
هنا في داخلنا تلك المعركة التي تتأجج في أعماقنا
لا سبيل للخلاص منها، حكم عليك بها،

فهنيئاً لا بالسلام بل باحتلال .. أتدري يا صديقي،
أنا عندما نتأرجح على حبل الحياة نصل الى تلك
اللحظة حيث نكاد فيها نقع ...

صديقي لم نكد بل وقعنا ... نحن نُحتلّ، بلا جيش،
بلا حرب، بلا أسلحة، ومن دون صراخ لا أسرى
لا جرحى، هناك قتيل على قيد الحياة، هناك جسدٌ
لا أكثر وهناك روح، ذاكرة وقلب تم احتلالهم
بكل برود، لا مفر من تلك الحروب هي أمور
مقدرة هي قضاء .. هي احتلال.

عندما نتخبط في وحل الآلام ومستنقعات الندم،
عندما يهطل المطر وتنفجر ينابيع الغصات
كبراكين في حلقنا ليضيق عتاً الهواء بطريقة
مميزة تنقلنا لمكان آخر .. كأنها إشارات عبورٍ
لمكان مختلف .. لسفر عبر الذاكرة وعبر الزمن
الى عصور الذاكرة المنقرضة ... هي جغرافية
محتلة، هي تاريخ بل وجود مُحْتَلّ ، هذا الاحتلال
الذي يغري أصحابه النادرين ، يدفعهم لخوض
معركة خاسرة وهم مدركون تماماً لذلك، هو
مسير بدأ عليهم إكمالهم،

في أيّ ماراتون العداء الأخير يصل لخط النهاية رغم علمه بخسارته مسبقاً قد يحتاج دورات كثيرة ليصل .. إلا أنه لا يتوقف رغم انهزامه ...

لربما أن النهايات تعري الجميع بغض النظر عن النتيجة المتوقعة عند الوصول ... ف تلك النفوس قد توغلت و غرقت بحماقاتها المميزة وخاضت غمار حرب خاسرة بإرادتها رغم أن فرصة النسيان أتحت لبرهة في تلك الحرب .. كان من الممكن تلقف الراية البيضاء في موضع ما .. لكن إغراء مثل هذه الحروب لم تدع مكاناً في الرأس للتفكير ، فدفعت بهم إلى مصير مجهول نهايته الهزيمة في جميع رواياته و طرقه المحتملة التي تزود عن الآلاف ..

في كل ثانية تمر هناك ألف احتمال لوقوع حدث بالثانية التي تليها يا أعزائي ... فهي نهاية خاسرة لها رابع وحيد هو الاحتلال فالكل خاسر والكل أحق ، الاحتلال ينتصر ، الحب ينتصر ، وأما المحبون فلا

تغتلنا الأحلام بوجودها ليجهز علينا الواقع ،
 نظير ليس لأننا طيور بل لأننا نسقط ، تتأرجح
 موازين العدالة ليس ظلماً ، بل قدراً
 نسقط لنقف ونقف لنسقط مرة أخرى ، ندخل في
 مفاوضات مع انفسنا ومزادات سلام مع أرواحنا ،
 نصرف شيكات السعادة ليبقى رصيد الندم ، كل
 شيء لا شيء ، مفترقات طرق تشتتنا ومنعطفات
 أحلام تمزقنا ، ويعود القدر ليلخص كل هذا في
 لقاء يستمر ل عدة ثوانٍ .

ليس بالسهولة أن ندرك تأثير الزمن حين لا
 نعيشه، ففي كل لحظة عُمرٌ و ذكرى..
 فالثانية في مقياس أولئك المحتلين تمر كأنها حياة
 بتفاصيل عظيمة بتصوير دقيق بأحلام و أماكن
 مقدسة وبعض الموسيقى العالقة ...

لا تحتاج الأسماء في قاموس المشاعر، تستطيع
 سرد حكايات ألف ليلة وليلة من نظرة عابرة ،
 ففي كل نبض هنالك مئات الحكايات والقصص،
 لا وجود للأسماء هنا ... لا حاجة لها فهم على
 الأرجح لم يلتفتوا لها على الإطلاق ...

حين تمسك مذكرات أحدهما ... ستشعر أنك
تطالع الآخر كان كلُّ منهما خيالاً للآخر في
أرض خالية من الظلال تماماً ...
كانا شذوذاً لا يوصف

بأطياف تحوم في مدن الذاكرة المحتلة ...
أطياف لا تصمت أبداً تستمر بالثرثرة الدائمة
وسرد الذكريات باستمرار ... تربط كل تفاصيل
الواقع بأبنية تلك المدينة ... لحين قدوم تلك
اللحظة التي ساد فيها صمت مخيم لا سابق له في
ذهن كلِّ منهما ... لثوان معدودة..

إلا أن هذه الثواني أوقفت عصوراً من الثثرثرة في
برهة صغيرة أصمتت كل ما يمكن له أن يتحرك
في الذهن ... كأنها شلت جيوش الاحتلال في
ذاكرة كليهما ...

لم أملك أي فكرة عن الذنب الذي اقترفته يوماً كي أعاقب بكوني الشاهد الوحيد على هذه القصة، كي أكون الشخص الوحيد الذي يمتلك القرار بدفن هذه القصة أو جعلها رواية للعابرين، للخائفين ورواية للنهاية ... حتى هذه اللحظة لازلت أسائل نفسي هل كنت بالفعل أملك هذا الحق ...! هل أملك حق الحديث عن تلك القصة ...؟! ربما لن اعرف الإجابة يوماً ... ولكن هذا ما حصل لقد قررت صناعة رواية من نهاية سقطت بين يدي كعقاب عظيم أو كمكافأة عظيمة لازلت أجهل أهي نعمة أم نقمة يا ترى ... منذ اللحظة التي لمست بها يدي تلك الأوراق وأنا دائم التفكير قليل الكلام وكثير التخيلات يخال لي أن هناك طيفاً يزورني في كل مرة أعيد قراءة النصوص الأصلية للقصة، تلك النصوص التي سطرت فوقها الدماء خاتمة وجد فيها القدر متعة ممزوجة بالياسمين ...

هناك في دمشق بدأ كل شيء أو من الأفضل
 صياغتها بشكل واقعي .. هناك في دمشق انتهى
 كل شيء قبل أن يبدأ ، لا بأس ببعض الغرابة
 فالعديد من البدايات في نظرنا هي نهايات
 للآخرين ، فنهاية شجرة ما ، في غابة ما ، في وقت
 ما ، هي بداية هذه الورقة التي أكتب عليها الآن
 وأجهل إلى أين سأصل في كتاباتي ، ونهاية هذه
 القصة هي بداية هذا العقاب الذي أعيشه كأني
 الإنسان الوحيد على هذه الأرض ، لا أعلم السبب
 فالجميع لديه أسرار إلا أنّ هذا السر أكبر من أن
 يقدر كائن مثلي على أن يحتفظ به دون أن يأكله
 التفكير أو تخيفه الأطياف المتخيلة في كل شارع
 من شوارع الشام ... الكثير الكثير من التفاصيل
 توجب عليّ أن اتعامل معها كصبي في السادسة
 يتعلم القراءة ويحتاج وقتاً طويلاً ليدرك ما كتب
 أمامه .. هكذا كنت أيضاً حين أمسكت تلك
 الأوراق المضرجة بالدماء ... مازالت رعشة
 شديدة تعتريني حين أتذكر اللحظة التي رأيتها
 فيها ، عندها قلبت ناظري بدون اهتمام بين جموع
 الناس ، نظرت إليهما كما ينظر طائر لسحابة

بجواره، نظرت كأنهما أمر اعتيادي روتيني
تقليدي .. اثنان من البشر ما الغريب بهذا الأمر...!
لم أدرك حينها أن الإنسان أكبر مما يبدو عليه
وأعمق مما يظهر لنا ... نحن الناظرون لا ندرك
الأسرار.

يومها ... لم أجرؤ على النوم ولم أجرؤ على
الاستيقاظ لم أجرؤ على الحياة شيء ما دفعني
للسفر لمكان آخر ،،، أهو خوفي من النهاية
أم هو لومي لنفسي ولنظري على ما آراه !!
لا أعلم حينها ماذا حصل ، كل ما أعلمه أنني لا
أجرؤ اليوم على سوء ظنٍ واحدٍ أبداً، لا أجرؤ
على إيذاء أيّ إنسان مهما كان ، يكفيه ما به ،
أجل يكفيه ما به ، جميعنا نملك الكثير في أعماقنا
، نعم يا سادة لا أجرؤ على لوم إنسان ، أعتقد أن
عقابي كان نتيجة لاستخفافي بالآخرين في وقت
ما ، كنت أظنّ الجميع فارغين ، الآن أدركت
أنني كنت الفارغ الوحيد حينها ، الآن وقد امتلأت
أجوافي ، بل فاضت عن احتمالي، احتجت سبيلاً

يخفف عني هذا الكم الهائل من الامتلاء .. لذا
شرعت أكتب ما تقرؤونه الآن أحبائي .

وان أردنا اكتشاف المجرم
نظرنا في المرأة فقط ...

اختلاط

إليكم روايتي، كل هذا بدأ عندما التقطت ما تبقى من تلك الأوراق عن الأرض لا أعلم ما الذي دفعني لهذا، لكن ما اعرفه أن كل شيء بدأ لحظة الحادثة، استطعت أن أنقذ ما يقارب النصف من كل مفكرة، كانت الأمور متشابكة عندها كلفافة من الصوف عبث بها طفل صغير، بدأت أقلب فيها بشكل فوضوي عبثي لا أكثر، لأنني لم أكن أعلم ماذا أفعل حينها...

أعتقد أن الجميع ظنوا أنني شخص أُصيب بالجنون من هول ما حدث في ذلك اليوم .. ولأنني كنت بصحة جيدة مقارنة بالآخرين لم يعرني أحدهم أيّ انتباه، أهو أمر مقدر أم ماذا!! كنت كالمجنون ألملم هذه الأوراق المتناثرة هنا وهناك كأنهم اطفالي الذين تشرذوا لخوفهم من أمر ما، وأخذت أقلب ناظري بحثاً عنهما وأنا أصلي وأدعو أن يكونا قد نجوا، لكن رغم معرفتي بعدم إمكانية هذا الأمر لم أفقد الأمل

و ظللت أبحث عنهما، لحين قدوم رجل الأمن الذي أمسك يدي وبدأ يسحبها نحو سيارة ما ، شعرت كأن هناك شيء يقتلع من جسدي حين سحب يدي نظرت إليه يصرخ بأعلى صوته و ويتكلم وبعد برهة أدرك أنني لا أسمع شيئاً مما يقول، لقد فقدت السمع، كان فقدان الأصوات هدية إلهية حينها، شكرت الله عليها كثيراً يومها، كنت أعيش هدوءاً مطلقاً بين لحظة وأخرى غدوت في سكون تام كانت الرؤية تشير الى الضجيج الهائل .. لقد استطعت الشعور بتلك الضجة بمجرد النظر حولي ، تمنيت لو أنه حلم لاستيقظ منه لكن حين شدت يدي من قبل رجل الأمن أدركت أنني لا أحلم

كنت أبلهاً في منتصف دمار تام ، وأصماً في منتصف ضجيج هائل، لقد أدركت كل التفاصيل رغم فقداني للسمع، إن صوت الألم لا يحتاج شخصاً يملك حاسة سمع مرهفة، يحتاج شخصاً يملك إنسانيةً في داخله لا أكثر، لا يمكن للأصوات أن تدمرنا بقدر ما تدمرنا النظرات،

حين بدأ قليل من الوعي يتسلل إليّ وأنا أُسحب من قبل رجل الأمن المضطرب الذي لا يدري ماذا يفعل، كنت مضرجاً أنا كذلك بالدماء فقلبت نظري مرةً ثانية وشعرت أنها المرة الأولى التي انظر بها حولي رغم أنني بحثت عنهما منذ برهة واستطلعت كافة الاتجاهات، لكنني لم أدرك كمية الألم حولي بعد.

حين نحدد شيئاً ما لا يسعنا التفكير إلا به لدرجة أننا نتجاهل بقية التفاصيل، شممت حينها رائحة الدم للمرة الأولى في ذلك اليوم، كيف لم اشتمها منذ قليل رغم أن الدماء تهطل من ثيابي، بدأ الشك يتسلل إليّ هل انا قاتل أم مجرم ما كل هذا الخراب، ازداد وعيي لما حولي حين جلست في سيارة ما لا أعلم ما كانت كل ما ادركته حينها أنني كنت في سيارة ما .. بدأ أحدهم يفحص جسدي ثم صرخ بجملته فأخذني رجل أمن آخر إلى مكان بعيد عن كل هذا الخراب وبدأ يتمتم جملاً متعاقبة سريعة ... وأنا متأكد من عدم قدرتي على فهمه في حال كان سمعي موجوداً .. فكيف الآن وأنا أصم ..

استغرقه الأمر دقائق ليدرك انني أصم ...
 فأرسلني إلى سيارة بيضاء أظن أنها سيارة
 الإسعاف و كل ما اذكره حينها إصراري على
 التمسك بالأوراق بين يدي ... استيقظت في ممر
 ما في أحد المستشفيات على سرير مرمي في
 ممر مكتظ، شعرت أنني سأختنق من الناس
 استجمعت قواي وخرجت بين هذه الجموع ...
 لم يلتفت أحد إلي فكلُّ لديه ما يشغله، يا له من
 يوم أسود رغم كثرة اللون الأبيض ضمنه،
 إنه لأمر نسبي، كل ما في الحياة نسبي.

عدت للمنزل بعد عناء ومشقة واستلقاء في
 الطريق لعدة ساعات في إحدى الحدائق...
 وصولي للمنزل كان بمثابة دخولي الجنة من دون
 حساب ... كأنني كنت في جحيم صاخب ...
 إن لم يكن صاخباً بالأصوات فقد كان صاخباً
 بألوان الألم و الخوف ... نظرت إلى يدي مازالت
 الأوراق متمسكة بها ... نعم لقد كانت الأوراق
 متمسكة بيدي أكثر من تمسك يدي بها،

كيف حصل هذا الأمر لست أدري بعد كل ما
 حصل ما زلت احتفظ بتلك الأوراق بين يديّ ...
 شعرت أنه من الضروري أن أعانقها ...
 عانقت الأوراق بشعور إنسانيّ مجرد ومترفع
 عن كل ما عشته أو سأعيشه يوماً ونمت بسلام
 وسكينة وألم حاد في فراشي الذي تلون بلون
 أحمر ...

لم أغف بسرعة حينها ... رغم الألم الحاد في كل
 جسدي لم ادرك بعد ما حجم إصابتي أو جروحي
 لا أعلم إن كان هذا الدم قد نزف من جسدي أم
 من جسد الآخرين ... كل ما أعلمه أنني احتضنت
 تلك الأوراق بعمق إنساني شديد وغفوت شيئاً
 فشيئاً ...

غفوت كثيراً بكوابيس مظلمة خلال ساعة واحدة
 غفوت عشرين مرة واستيقظت مرغماً في
 العشرين مرة بجحيم في رأسي، وددت لو أنني
 أملك قدرة على نزع رأسي عن جسدي كي يغفو
 هذا الجسد لمرة واحدة بهدوء لدقيقة واحدة بهدوء
 لكن الذاكرة قاتلة والتذكر جحيم.

حين تكون ذكرياتنا سوداء نتمنى أن نفقد كل
إحساس بهذا اللون ... وحين تكون بيضاء نتحول
لحمامة دمشقية ترفرف فوق المنازل فحين يكون
الحلم جحيماً لا تود أن تنام أبداً ...
علينا أن نعي جيداً أن الأحلام ليست وردية
بالضرورة ... أحيانا تكون مظلمة داكنة ومؤلمة
بشكل يدفعك للسهر مئة عام من دول التفكير
بالنوم ولو للحظة ..

لم أكن قادراً على النهوض غلبنى الألم فنمت
مجبراً لا مختياراً، حتى أحلامي السوداوية لم
توقظني مجدداً... يبدو أنها رأت حالتي التي تفوق
سوء أحلامي وكوابيسي بما حصل فقررت
الانسحاب رافة بما بي ...

لعل الأحلام تشعر بأصحابها، فنتوقف عن
التمادي حين تدرك أنها تؤذينا .. خاصة الوردي
منها وهكذا غفوت دون أي مشاعر ... دون
أن أحس بأنني حيٌّ بأنني بشر ... لقد غفوت ك لا
شيء كفراغ كعلبة خاوية خلدت إلى النوم.

نشعر بالذنب في حالة واحدة،
عندما نكون مذنبين بحق
فالذنب ليس شعوراً يحتمل الخيارات ...

ضباع

استيقظت أخيراً، لا ادري ما الوقت ولم أفكر بهذا الأمر أبداً، ظللت أتقلب في فراشي لعدة ساعات أحلق في السقف تارة وفي الجدران تارة أخرى حاولت التفكير بكل شيء فيما عدا ما حصل أمس أو أول أمس فأنا لا زلت أجهل في أي يوم استيقظت أو أي ساعة، حين نهضت جلست في سريري شعرت انها المرة الأولى لي في هذه الحياة .. كأنني ولدت الآن .. كأنني لم أكن نائماً بل كنت في رحم الحياة وولدت في هذه اللحظة المجهولة التاريخ ...

من الأفضل أحياناً نسيان التواريخ، فتعلقنا بتاريخ ما هو تعلق بكل تفاصيله وكل آلامه وكل أفراحه ولكن سخرية القدر تكمن بأن بعض الذكريات الجميلة عند مرور الزمن تتحول إلى حزن وحسرة و رغبة قاتلة بالعودة إليها .. أما الحزين من التواريخ فهو حزين لأجل غير مسمى فلا عدل في هذا الأمر يا أعزائي ...

تعود بي الذاكرة الآن إلى الماضي، أقلب صور
الطفولة منذ بداية تذكري الأمور وحتى اللحظة
التي تسبق تلك الحادثة المروعة في دمشق، كل
ما ألاحظه الآن نظرتي المختلفة لكل ما حصل،
كأنها المرة الأولى التي أراجع فيها سلسلة
ذكرياتي السابقة، لقد اختلفت بعض الأمور بشكل
واضح، أشعر بالضياع حول كل شيء،
أهي صدمة أصابتنني بعد تلك الحادثة!!
كنت أجهل كل شيء إلا أن هناك ما يدفعني
للتفكير، أريد شيئاً لا أدري ما هو كأنني في دائرة
أبحث فيها عن زاوية ما، رغم إدراكي لاستحالة
الموقف إلا أنني متمسك به بغباء، أهو الألم
الإنساني أم الذاكرة المؤلمة التي تدفعني إلى هذا
التشتت، لا أستطيع وصف ما يحصل الآن،
لا أستطيع.

إلى أين الآن؟! ، أين كنت؟!
ما كل هذه الأمور المتشابكة في ذهني ، أشعر
بالخدر العام ، كأن أفكارني قيدت جسدي عن
الحركة، فبدأت أركض في مسارات الأفكار التي
تظهر الآن من كل صوب .
أن تكون إنساناً أمر صعب حقاً، أما أن تكون
جاهلاً بإنسانيتك ثم تكتشفها في لحظة غير
متوقعة أمر أصعب، لا لم أكن جاهلاً بإنسانيتي،
فلم أؤذ أحداً قط، إلا أنني اكتشفت أبعاداً أخرى
للأمور، كالنهاية المنتظرة تشكل القدر المناسب
في كل لحظة لتظهر كمفاجأة لنا ..
يخيل لي أن نهايتي الآن بجوارني، تراقبني
بصمت، أيعقل هذا، الأفكار تنهش عقلي بقسوة،
(شرعت بالبكاء كطفل أضع أحد ألعابه المفضلة)
وبدأت أتمتم بأشياء لا أعلم ما هي ، كل ما أعلمه
أنني كنت على بعد شعرة من الانهيار التام

رحلة لا يمكن لأي كان خوضها، مرحلة لا يمكن الرجوع منها بسهولة .
كانت لا تزال قطرات الدمع الهاطلة على فراشي
تتسارع نحو السقوط وكنت لا أزال أجهل ما يحدث،
دمار نفسي تام هذا ما حصل، لم أكن قادراً على استيعاب ضخامة الأحداث كل ذلك الألم والبؤس كان كفيلاً بجعلي أشعر بالجنون
أتحدث إلى نفسي أبكي بقوة متمتاً بأشياء لا أفهم منها شيئاً، لقد زال الترابط بين ذاتي وحواسي في موقف لا يمكن وصفه، تعريت عن وجودي الذاتي كجسد وسافرت في ذاتي مبحراً في محيط هائل رغم عدم معرفتي كيف أسبح، لم يكن بمقدوري أن أفتح عينيّ مازال الشلل الغريب يسيطر عليّ، كم مضى من الوقت لا أدري فقد زال إدراكي للزمان ولمكان وجودي، أين أنا الآن .. أعلى أحد أرصفة أحد الشوارع مرمياً مضرجاً بدمائي !!
أم في مكان عملي، أم أنني قد توفيت، حقاً !!؟
هل أنا شبح، أين أنا، أريد الحركة، لا أقدر،

أشعر برعب تام فدافعنا نحو الحياة يجعل من
فكرة فقدانها أمراً مخيفاً بشدة، أريد الصراخ لكن
لا أقدر، ما كل هذا أين أنا، أريد الخروج، أريد
الخروج من كل ما يحصل، لا أقوى على إبعاد
جفني عن بعضهما، هل حقاً انتهيت !!
إلى أين الآن، استملكنتني رغبة لا توصف بالبقاء
رغم تمنّي الموت في وقت سابق .
حين نتقابل مع الأمور بشكل مباشر يتعذر علينا
البقاء كما أردنا، لا يمكن إدراك الأمور عند عدم
العيش في تفاصيلها، لذلك كل قرار مبني على
افتراض وقائع حدث ما في حياتنا قبيل الوقوف
أمامه وجهاً لوجه هو خاطئ، نعم خاطئ.
أصبحت أستشعر الحكمة في الأمور يا إلهي ما
كل هذا، أين أذهب !!
إلى من أتحدث، لقد جننت لقد جننت

يعود الصمت ليعتزيني فأعود التفكير بكل شيء
 دفعة واحدة، لا أقوى على شيء أريد الخروج
 فقط من كل هذا الجنون الذي أعيشه، أريد
 الخروج .

لم يكن البكاء نافعاً رغم قسوته، لم ينفع بشيء
 حينها، انتقل بي الوقت إلى زمن آخر وسافرت
 في ذاتي مرغماً، تائهاً، أشياء لم يخيل لي أن
 أفكر بها، أشعر أن رأسي سينفجر، كل شيء بدا
 صاحباً بشدة، أود إيقاف كل هذا لكن لا أشعر
 بشيء، لا أتحكم بشيء، إنسانيتي الآن تحتضر
 في داخلي وأنا أعيش هذا الاحتضار الذاتي
 القاتل، ارحلي، ارحلي، هذه الأفكار تقتلني، أود
 إنهاء كل هذا، أود الصراخ، أحتاج أموراً كثيرة
 الآن، أريد الحرية من هذا، هناك ما يسري في
 جسدي و يحتله، أشعر بأشياء ذات بعدٍ خيالي لا
 يمكن إدراكه، شيء ما يحتلني من الداخل، أكان
 الشعور بالذنب أم الخوف من فقدان الوجود !!؟؟
 شيء ما يقضي عليّ ويشل أصغر حركة في
 جسدي، أود الاستسلام إلا أنني أدركت استسلامي
 قبل بداية كل هذا، أما المقاومة فلم تكن خياراً

متاحاً، فعندما يتعلق الأمر بوجودك وذاتك
الداخلية المدفونة لا مقاومة تنفع فلا قرار لأي
شيء أو أي أحد عليها، إما النهاية و إما
الاستسلام، لا مقاومة .

لا بأس بالنهاية فتراكم ما أشعر به يؤلم بمقدار لا
يوصف لا بأس بالنهاية أرجوكم، أريد إنهاء كل
هذا، دمار، دماء، موت، نهاية ،
أريد الصراخ ، يكفي، يكفي، هذا يكفي ...
أشياء غريبة تسري في عروقي ،
أقسم أنها ليست دماء أنا متأكد .
ما كل هذا، ما كل هذا، إنسانيتي المحتضرة تحتل
خلايا جسدي، تريد النجاة، إلا أنني أرغب
بالنهاية فكل هذه الآلام لا توصف، لا اشعر
بشيء، لا أشعر أنني حيّ أريد إيقاف هذا .

كنت اتخبط في الاحداث كسمكة رماها أحد
الصيادين على اليابسة، توجب عليّ تعليم نفسي
التنفس إلا أنني لم أملك رئتين، كان الأمر أشبه
باقتلاع ذاتي مني، لا زلت أجهل ما السبب، وراء
كل هذا، كيف لإنسان مثلي أن يسافر في رحلة
عميقة كتلك، أنملك جميعاً القرار بهذا أم هو أمر
مرتبط بأمور لا نقوى على السيطرة عليها، لا
أملك أية إجابات أبداً، ما أملكه مجرد بقايا من
الأسئلة لا أكثر، حتى أسئلتني أصبحت تائهة،
ما عدت أعلم ما كنت أريد أن اعلمه في وقت
سابق، أردت إنهاء كل شيء فقط، الذاكرة لا
ترحم والتذكر قاتل، حالتي النفسية اعماق من أن
تشرح لأي أحد، وأعمق من أن أقدر على شرحها
أو الحديث عنها، حالة ترفعت عن السطحية
المفرطة التي كانت متشبهة بنظرتي للحياة .

أحاول العثور على أصغر فرصة متاحة لاستجمع ذاتي من جديد ، لإعادة ترتيب نفسي وترتيب كل هذه المشاعر المختلطة معاً بشكل لا يصدق، كيف لإنسان أن يشعر بالبؤس و الأمل معاً أو المحبة والكره معاً، كنت أشعر بكل المشاعر حينها، تعصرني الذكريات وتجهز عليّ إنسانيتي الغاضبة، ما هكذا كنا، ما الذي يحصل، ما كل هذا الخراب الإنساني والخروج عن البشرية، لقد ترفعت عن الانتماء لأي شيء، لا يهم ما الذي يحصل، أو من يملك زمام الأمور، الأهم كان حفاظنا على الإنسانية مهما تعددت الوجوه، جميعنا كنا على خطأ ولا نزال، كانت النزاهة والسلام واجباً على كل منا وليس خياراً، فالسلام ليس خياراً أماناً إنه الواجب الوحيد الذي تجبرنا إنسانيتنا على اعتناقه، إلا أننا فشلنا في الإيمان بمعتقد بسيط كهذا، بسيط كفكرة و عميق كدلالة ، و ذو بعد أبعد من أن يُدرك بسهولة، لا يمكن إدراك حاجتنا الملحة للسلام بهذه القوة إلا حين ترعبنا الحروب وتلحق بنا خسائر لا تعد،

لا يتعلق الأمر الآن بخسارتي التي لا أستطيع تجاوزها فقط بل يتعلق بحاضرنا وماضيها ومانحن مقدمون عليه ، أجل لقد خسرت الكثير وأنا مدرك لحجم خسارتي، إلا أنني لا أقوى على الظهور بهذه الخسارة الصغيرة مقارنة بما سيحصل في المستقبل، الأمور نسبية، فصغير في قاموس الكبار هو أضخم من قاموس الصغار بكل ما يشمله .

لم يكن لدي سواهما بالإضافة إلى أخي الأصغر ، ما زلت عاجزاً عن إدراك رحيلهم بهذا الشكل المرعب، المفاجئ والغير متوقع، لم تكن خسارتي لهم أمراً أستصغره أو أقلل من قيمته، إلا أننا كنا آثاراً صغيره لخسارة أكبر تحوم حولنا، لم يكن البكاء كفيلاً بإزالة التشوه الذي خلفه ذلك اليوم في ذاتي وذاكرتي، لم أكن الوحيد، كنت أحد الكثيرين شاهدت كل شيء بكل وضوح، لم يعد الحزن كافياً، لقد تجاوزت الأمر، لقد خسرت وانتهى الأمر.

أتذكر اتصال والدتي صباحاً، تخبرني بأن ألقى التحية عليهم فقد اشتاقا إلي ' وأخبرتهم أنني قادم للزيارة بعد الانتهاء من عملي، ماذا لو لم أفعل هذا؟! كيف سآزورهم الآن، مكان عملي ذاك المجاور لمنزلنا الذي يسكن فيه أبوي وأخي الأصغر.

حين انتشلني رجل الأمن ذاك نظرت إلا أنني لم أر أي شيء، لم يكن البناء موجوداً، بناء من طابقين بدا من بعيد كتلة من الركام فقط، بجواره كتل أخرى، كان هذا كافياً بقتل كل شيء قُدِّر له أن ينجو اثناء الحادثة، كان تلك النظرة نهاية لكل بداية في حياتي ، صرخت في داخلي حينها لقد انتهينا، لقد انتهينا .

لا أعتقد أن هناك من كان قادراً على الشعور بي، في لحظة ما صمت كل شيء، استملكني برود كامل في كل شيء، في أفكاري وذاتي وحواسي، كأنني بت لا أشعر، لقد تجردت من أدنى إحساس بالوجود، وكأنّ شاحنة عبرت فوق جسدي ورحلت مسرعة دون أن تترك أثراً واضحاً

لعبورها باستثناء ذاك الألم الذي خلفته في داخلي،
لم أتوقع الشعور بالبؤس الحقيقي الذي كنت
أشاهده في الأفلام وأسمع عنه في مقتطفات
الروايات والكتب .

أتذكر تلك اللحظة، حين قمت بإبعاد جفني عن
بعضهما بعد عناء ومشقة وشعور بالشلل، كان
أول شيء أراه ... كل شيء معاً، كل شيء معاً.
كأنني دفنت في الحياة وعوقبت ...
والآن عدت مجبراً

هل كانت عودتي عقاباً أم نجاة!!
ألم يكن الموت أرحم من البقاء مشاهداً الحرب
تنهش ما تبقى من أمل في داخلي، لم أصدق بعد
ما حصل، أحاول إقناع نفسي بأنه كابوس ما،
سيمر، سيمر ...

رغم معرفتي بأنها الحقيقة إلا أنني لم أزد
التصديق وحسب .

بعض الأكاذيب الصغيرة على أنفسنا تدفعنا إلى
 الأمام، في بعض الأحيان نكون مرغمين على
 التقدم لأن الهاوية خلف ظهورنا، نحتاج كذبة في
 بعض الأحيان كي نتقذنا من الجحيم المحتم،
 وكنت غريقاً متمسكاً بقشة /لا أصدق ما حصل
 وأصدقه/، ازدواجية مفرطة في رأسي، وما زلت
 لم أتحرك بعد من مكاني في السرير، كل هذه
 الأمور في عدة ثوان فقط ما بين إبعاد جفني عن
 بعضهما وإدراكي أنني في غرفتي مستلقياً على
 سريري، كل هذا تسلل وتزاحم في رأسي بمجرد
 عبور القليل من الضوء إلى عيني حين قمت
 بفتحهما على هذا العالم بعد تجربة تمنيت لو انها
 اجهزت عليّ بوحشيتها تلك.

الناجون من الكوارث الكبرى هم أكثر من
يتمنون الموت وأقل من يطرق الموت أبوابهم،
لا أدري السبب لربما عادوا كي يبعثوا لنا
برسالة، لربما حكم عليهم بهذا كي ينقلوا لنا
دروساً لا ندركها بعد.

نود الإمساك بطرف الخيط، ونتمنى أن تكون
نهايته غير مرتبطة بنا.

توجب عليّ النهوض قليلاً وقفت على قدمي
وكأنها المرة الأولى التي أقف بها، شعرت بأنني
مشلول عانى طوال حياته من عدم مقدرته على
المشي، أما الآن فقد عادت الحياة لقدميه، ما زلت
لا اسمع الأصوات، حاولت إدراك وجود أصوات
لكن كل ما أدركته هو هدوء خافت بدرجة عالية،
كان يشوب هذا الهدوء بعض الرؤى من حادثة
أمس أو قبله، أشعر بالضيق ولا أود الاقتراب
من النافذة، لم أرد التحرك من مكاني أبداً لازلت
أشعر بالأم إلا انني شعرت أنه من المخجل لي أن
أشكو من هذا الألم، لقد شعرت بأنني صغير في
أعين ذاتي، فوجعي لا شيء مقارنة بذاك اليوم،
بأوجاع أولئك الناس و بالدمار الذي حل باكرا
بيننا.

لا أحد تخيل قدوم هذه الذكريات إلينا، لعل شيئاً
ما فاتنا في الماضي وها نحن نحصد أنفسنا
وحاضرنا عقاباً عليه، عدت إلى فراشي سريعاً و
استلقيت على أوراق المفكرة المتناثرة في انحاء
سريري وعلى جوانبه ومددت يدي إلى ورقة ما
محاوياً دفع ذكرياتي بفضولي

و بدأت اقرأ بصوت لا أدري إن كان ذو بحة أم
خافتاً فقط فلم أكن أشعر بشيء حينها خلاف الألم
الذي تغاضيت عنه خجلاً من إنسانيتي التي
تعرت أمامي منذ يوم أو يومين، لم تعد تهمني
التواريخ... بدأت اقرأ :

" إنه كانون لا أعلم ما الغريب في الأمر ففي كل
سنة كانون، لربما سماع اسمك في أحد شوارع
فرنسا كان أمراً غير متوقع البتة، حين نادى تلك
المرأة زوجها الذي صادف أنه يملك اسماً مشابهاً
لاسماك، فلا احد يملك اسمك في نظري، كنت
أقوم برياضتي الصباحية في إحدى الحدائق في
" // "

كانت الورقة ملطخة بالدماء فتعذر عليّ قراءة
عدة أسطر فنظرت للوجه الآخر من الورقة حيث
وجدت فيها:

" أو كأنها إشراقة الصباح الأولى لي في باريس كأنني
لم أشعر بالصباح حتى هذه اللحظة غريب وجود
اسمك هنا كما هو غريب بقاؤك معي وأنت بعيد

حسناً ما زلت أحبك هذا ما تبين لي اليوم واليوم
الماضي واليوم الذي يسبقهما والذي قبله وقبله
ومنذ شهر وشهرين وغداً "

ابتسمت لبرهة وبدأت أحاول قراءة ما تعذر عليّ
قراءته في الصفحة السابقة، قادني فضولي
للتشبيه الآخر الذي يسبق كلمة /أو/ في تلك
الرسالة، إلا أنني لم أقدر على فهم المكتوب .

تلقت ورقة أخرى إلا أنني لاحظت على الفور
اختلاف نوع الورق، ففي المرة السابقة كانت
ورقة بيضاء بخطوط زهرية وبعض الورود في
أعلى الصفحة إلا أن هذه الورقة كانت بيضاء
بخطوط سوداء بدون أي تزيين ..

و كسيل جارف يجتاح بستاناً من الزهور عادت
بي الذاكرة إلى الحادثة السابقة، إلى اللحظات
التي سبقتها تحديداً، حين قلبت ناظري اثناء
دخولي إلى مكان عملي، الشخصين اللذين مرّت
بهم نظراتي بشكل سطحي، لمحت بيد كلن منهما
مفكرة، كانت المفكرتان متشابهتان من الخارج
فكلاهما ابيض اللون، لم انظر الى معالمهما

الجسدية بدقة، مرّ ناظري بهما واستقبل هذا التفصيل كشيء سطحي، شخصان كل منهما يحمل مفكرته الخاصة ما الغريب بالأمر؟! وعندها قلبت ناظري إلى حوض اسمنتني مجاور قد وضع فيه أحدهم القليل من التراب ليعده لزراعة بعض الزهور التي وضعت بجانبه في اصيص صغير، ثم تابعت مسرعاً. دأت التساؤل لقد أنقذتني سطحياتي المفرطة من الموت ذلك اليوم هل يتوجب عليّ الفرح أم الحزن لهذا الأمر؟! نهضت وبدأت اجمع الأوراق المتشابهة معاً، ليستا كاملتين لكن هناك ما يكفي لأشغل نفسي به، لست من الأشخاص الذين يؤمنون بالصدف البحتة، بل أعتقد ان لكل شيء سبباً سيظهر لو بعد حين، وهذا ما رأيته في تلك الأوراق المبعثرة بين يدي الآن فوصولها إلى هنا رغم كل ما حصل ليس بالأمر الذي يوصف بأنه صدفة ما، حتى هذه اللحظة ما زلت غير مدرك لسبب التقاطي لتلك الأوراق بكل ذاك الإصرار، حين أفكر بالسبب لا شيء يظهر شيء.

لكل قصة مهما بلغت غرابتها و مهما كانت نهايتها وكيفما بدأت سبب مقدس دفعها لتحصل، لتصل الى هذه النقطة، بدأت أشغل نفسي بالبحث عن سببي المقدس الذي لا أدري ما هو، لكن حاجتي لسبب كهذا في هذا الوقت الراهن دفعت بي للبحث عن شيء لربما غير موجود، أنهيت ترتيب الأوراق في مجموعتين، الأولى أوراق بيضاء ذات ورود و اخرى بيضاء بدون ورود .. كما هو ملاحظ فالأولى للفتاة والثانية للشاب.

ذاكرتي مهمشة، مدمرة، لا أذكر الأمور بوضوح بعد، أحاول عصر رأسي بين يدي إلا أنني أتألم كثيراً، عدت إلى سريري مستلقياً محطماً من الألم، ما زالت رائحتي ذاتها، لا أدري إن كانت تصدر بالفعل من ثيابي أم أنها احتلت ذاكرتي، توقعت أن اشتتم روائح غريبة في الحياة لكن أن تشتم رائحة بذاكرتك هو أمر آخر، أمر لا يوصف، رائحة الإنسانية المتفحمة والذات المهترئة، والأمل المحترق روائح لم أتوقع أن تكون موجودة و إن وجدت لم أتوقع أنها ستكون

ذكرى لإحدى حواسي، أتمنى أن تزول يوماً
رغم معرفتي بعدم زوالها فذكريات كهذه تحتلنا
حتى الممات، تعودنا أن نغفوا على أصوات
موسيقية أو قصة قصيرة أما اليوم فعادت النوم
على روائح الإنسانية الميتة، لم أشعر بجفوني
عندما أغلقت.

رغم معرفتي بأنها أحداث حصلت والان أعيد روايتها أتمنى أن يكون كل ما حصل مجرد كابوس سيء لأحدى الليالي الطويلة التي على وشك الانتهاء في أي لحظة....

استيقظت في ساعة مجهولة تماماً وأنا أشعر بالتعب الشديد والعطش والجوع كأني قضيت عمراً بأكمله و أنا نائم، نهضت بصعوبة بالغة وتوجهت إلى الحمام، أدت صنوبر المياه ووقفت أسفل الرشاش بكامل ثيابي، تحولت أرضية الحمام إلى سيل من الحمم الحمراء تجري بعنف نحو مصرف المياه، لا أذكر إن كان الماء ساخناً أم بارداً حينها ما عادت تلك التفاصيل تهم، خرجت بعد أن قمت بتبديل ملابسني ثم قمت بتعقيم جروحي وخدوشي، هناك ألم لا يوصف في أذني، ذهبت إلى المطبخ وتناولت بعض المسكنات التي أملك منها الكثير، ذاك اليوم بالذات أدركت أن بعض الآلام لا تُسكن يا أعزائي، هنالك أشياء أعمق من أن تدركها حبوب زهرية أو بيضاء اللون، وبينما أشرب

حبوب الدواء جال بخاطري منظر المفكرتين
المثبتتين بين يديهما قبيل الحادثة، تناولت رغيفاً
بيدي وعدت الى غرفتي، لا أشعر بالجوع
الطبيعي الذي كنت أشعر به في معدتي فقط،
شعرت بجوع عام، أشعر الآن بالجوع لإنسانيتي
وللسلام وبالجوع نحو صوت الموسيقى في هذا
الوضع، أدت مشغل الأغاني الخاص بي،
لا أسمع لكني أشعر وهذا يكفيني، فحين أحتاج
لأغنية ما أتخيل أنها تصدح من المشغل الآن،
أمر مميز حين لا تملك شيئاً يمكنك تخيل امتلاك
أي شيء، يمكنك أن تبني قصوراً كاملة من
الأحلام والتخيلات الجميلة، لأنه في الحقيقة
ستهدم من قبل الواقع عاجلاً أم آجلاً بكل برود،
لم أعد أبالي بأي شيء بعد الآن فأفكاري في
ضياح تام وذاكرتي محتلة بتفاصيل يوم واحد،
هذا اليوم الذي جاءك طوفان من السوداوية
المرعبة لتحتل أزقة ذاكرتي وتطرق أبوابها بكل
عنف لتدخل بعدها دون استئذان .

نحترف الانتظار فنكاد ننسى كيف نعيش

لم انتظرت انتهاء عملي، لقد قضيت عمري
منتظرا، لا يزال وجه أخي الصغير شبه مجهول
بالنسبة لي فلم أتمعن به مسبقاً لضيق وقتي
وانشغالي، لقد كنت منشغلا انتظر الوقت المناسب
كي أحيا وها أنا ذا انتظر النهاية فقط، فلم يعد
هناك شيء ينتظر مني أن أحيا له، كم كنت
سادجأ، لم لم أذهب لهم قبيل عملي!!
لربما تغير شيء ما، لربما نجونا، كل التفاصيل
لم تعد مهمة، فلا شيء سيعود من الماضي لينقذنا
من لعنة الحاضر، كل ما لدي هو وقائع تقتلني،
لقد انتهى كل شيء هذا ما أردده في داخلي الآن
باستمرار، كان عليهم انتظاري، هذا هو الانتظار
الوحيد الذي كان يستحق مني أن أسرع من أجله،
انتظار رحيلي معهم، ما الذي فعلته لأعاقب بكل
هذه القسوة .

تعود الأفكار ذاتها وبقايا التساؤلات الحائرة ذاتها
دوماً، ماذا فعلت لأستحق هذا، لا أشعر بانه
يتوجب عليّ الشعور، فقد اكتفيت بما حصل لبقية
حياتي، ما من شيء سيمر الآن أحق من الذي
حصل بالمشاعر، كانت الأفكار تسري في كل
إنش من جسدي، كانت إذا مرت في فمي شعرت
بطعم مر مقرف و إن مرت بناظري أرنتي
مخاوفي مجتمعة سوية في لوحة سوداوية مختارة
بعناية لتجهز على الأمان في داخلي .

في لحظات ما كنت انسى أو أتناسى ما حصل،
 كنت أنسى وجه أمي الضحوك في الصباح،
 وصراخها عندما كنت ألعب في الشارع وحننها
 في مرضي وجمال نظراتها حين كانت تقص
 علينا القصص في الصغر، لقد نسيت إمساكها
 يدي وتعليمها لي كل ما أعلمه، لقد نسيت، لقد
 نسيت ..

لقد نسيت تفاصيل وجهها والثلاث خطوط من
 التجاعيد على جبهتها التي تعودت أن تضعها
 على جبهتي في مرضي وحنني وانكساري
 وبكائي وهزيمتي وضعفي

نعم انا كاذب بالفعل، كيف لي أن أنسى، كانت
 خسارتي أعظم من أن توصف، ومؤلمة لدرجة لم
 يعد الألم ذا معنى في نظري، لقد تجاوزت كل
 هذا، أعاني الآن من حالة أخرى، حالة ترفعت
 بها عن كل الأمور أعيش حالة من التقبل، فكل ما
 حصل لا مرد منه و لا مفر، أجبرت على
 النضوج الحقيقي بطريقة عنيفة،

كل هذه الفوضى هنا ، وبدون أي شعور ، اختفى
كل شيء وساد صمت تام، وغفوت .

الكوارث خلقت لتخبرنا بوجود خطب ما

الساعة الآن الحادية عشر صباحا بتوقيت دمشق
الكئيبة، لقد غفوت ليومين كاملين بعد الحادثة
التي كانت في يوم الجمعة والآن هو صباح
الاثنين يبدو أكثر هدوءاً من سابقه، بل أبدو أكثر
حماقة عن سابقني، جاست خلف مكتبي وامامي
تلك الأوراق، والألم مازال يعتصر رأسي وأذني،
من أين ابدأ بل كيف انتهي ... !!

سألت نفسي وأنا أقلب نظري بين الأوراق تارة
وبين أشياء غرقتي المبعثرة، جال في خاطري أن
أرتب أوراق المفكرة حسب التواريخ التي لا
زالنا ناجية مما حصل، بدأت بمذكرة الفتاة
وبدأت أحاول تنظيم أشلاء هذه المفكرة المبعثرة
بالرغم من رائحة الدماء لا زلت قادراً على
الإحساس ببعض الروائح العطرة الصادرة من
أوراق المفكرة الأولى، غريب كيف للروائح
الجميلة أن تنجو بعد كل شيء، تمنيت لو كان
الأمر سيان بالنسبة لنا نحن البشر، ما الذي ضر
لو أن الجميل منا قادر على النجاة دوماً ما العيب
في هذا !!

استغرقني الأمر حوالي ساعة لأرتب الأوراق حسب ما بدا لي من آثار التواريخ الناجية على الأوراق، ظلت بعض الأوراق مجهولة التاريخ ومهمشة السطور، ممحية الآثار وملطخة بالدماء بشكل يمنع قراءة تاريخها بوضوح وضعتها أسفل الأوراق المرتبة وانتقلت إلى المفكرة الثانية وقمت بترتيب ما تبقى منها أيضا وترميم بعض الأوراق باللصق ووضع الأوراق مجهولة التاريخ منها في الأسفل أيضاً.

للهولة الأولى انتابني شعور غريب، كأنني أسرق أو أعتدي على ملكية ليست من حقي، شعرت أنني مخطئ، ومذنب بهذا التصرف، لربما سيمانعان هذا، لربما ما زال على قيد الحياة، ما زلت أجهل أسمائهم، لكن كان من المستحيل النجاة من ذلك الجحيم الذي عصف بنا في لحظة عابرة غير متوقعة، كغرفة دافئة في أحد العواصف الثلجية، قذف الهواء غصناً فكسر أحد نوافذها، لم اجرؤ على مشاهدة التلفاز،

لا أريد المزيد من الذكريات المميّنة لذاكرتي، لقد نالت كفايتها بل أكثر .

أن تعيش في جحيم لفترة ما أمر لا يحدث كل يوم لكنه حصل معي في دمشق، ذاك الصوت المدوي الشيء الأخير الذي احتل حاسة السمع لدي والشيء الأول الذي لم أرد له أن يوجد في حواسي.

يرتجف جسدي باستمرار وتعتريني رعشة في كل مرة أتذكر ما حصل وللأسف لم تمر عليّ حتى الآن أي لحظة بلا ارتعاش، إنها لأقسى من رهبة الوحش الصغير أسفل سريري عندما كنت طفلاً ،

لقد كانت أطياف الموت تحوم حولي شعرت بأن الشيطان يقف بجانبني مستهزئاً بما آلت إليه الأمور هنا .

أندرون ما هو الأمر من الموت ، مشاهدته ، حين نموت لن نر شيئاً فكما قيل الرصاصة التي تقتلك لن تسمع صوتها، لن تقدر على رؤيتها، لكننا نستطيع رؤية من يتعرض لها، نستطيع تحسسها

واشتمام رائحة البارود الخاص بها أيضاً، كم كانوا مباركين من السماء أولئك الذين لقوا حتفهم في ذاك اليوم، على الأقل لن يحييوا بذاكرة عفنة، فهم لم يروا شيئاً لم يشعروا بشيء مطلقاً، المشكلة ليست عند الموتى، المشكلة عندنا نحن الأحياء الذين نموت بالخفاء دون أن نُحمل بتوابيت ملفوفة بأعلام و دون أن يُنظر لنا على أننا شرفاء وشهداء، لا يمكن النظر لنا سوى بشفقة عارمة، ما زلنا أحياء في العلن، قرأت ذات يوم قولاً:

"عندما أموت ادفنوا كل جزء مني في مكان

مختلف.... فلا يجوز دفن كل هذا البؤس في

حفرة واحدة"

أعتقد أن هذا ما سوف أكتبه في وصيتي، أيعقل أن تكون هذه وصيةً لأولئك الذين رحلوا يومها لربما أرادوا أن تنشر أشلاؤهم في كل مكان، أن يرحل البؤس والألم منهم، أن يخففوا عن هذه الأرض كمية الأسي، أحاول إيجاد سبب ما أعزي به نفسي مهما بلغت سخافته و غرابته وعدم

منطقيته، حقاً أحتاج هذا، إنني أحتاج هذا بقدر حاجة طائر لحريره وجناحيه .

ما زلت أجهل سبب تمسكي بهاتين المفكرتين، يراودني فضول تام نحوهما، فدخولهما مجريات حياتي جاء في وقت غريب ومكان أغرب وحادثة لا تصدق، في كل تلك الفوضى انشغلت أنا بجمع الأوراق دون أدنى فكرة عن السبب لعل هناك سبباً لا أذكره، فذاكرتي ما زالت مشوشة، لربما أتذكر السبب عند عودة الوعي إليّ .

عدت إلى مكتبي أراقب تلك الأوراق كأنني أنتظر منها أن تتكلم لتخبرني ما حصل، لتتحدث لي عن سبب قدومهما إلي، عن أصحابهما، لا أدري أي شيء، أغلق ستارة الغرفة جيداً، جلست أتعرف على تلك الأوراق، للحظة الأولى ظننت أنني أردت أن أشغل نفسي بأي شيء لا أكثر، أشغل أفكاري أشغل حواسي هذا ما ظننته كنت أريد أي سبب مهما كان سطحياً، سخيلاً أو حتى تافهاً.

يتوجب على الذكريات أن تنجو في كل مرة،
لتخبرنا القصة الأصلية...

هناك الكثير من الأحداث المختفية والممزقة،
 أمسكت بقايا المفكرة الأولى ذات الخطوط
 الزهرية والعطر الفواح رغم كل ما حصل:

"من التواريخ الناجية من مجزرة القدر... وأما
 بعد فأنا أتذكر بكل وضوح صورة وجهك المشرق
 صباحاً أسفل النافذة ، وعينيك السوداوان
 كبياض الثلج ، نعم كانتا كالثلج بالنسبة لي ،
 مازالت ليالي الطفولة تحوم حولي كأطياف حائرة
 تبحث عنك ، تخيل أنها تبعثني كل هذه المسافة
 إلى باريس ، إلى هنا ، أصبحت الشوارع هنا تضج
 بأطياف طفولتي الجميلة معك ، حتى العجوز
 منها، أطياف الشباب الفتي الهرم تبعثني، جيوش
 من الأطياف سافرت معي إلى هنا، ما زلت أتعجب
 كيف لذاكرتي أن تتسع لهذا الكم الهائل من
 الأطياف إضافة للذكريات والأحداث و التواريخ
 والأيام ووجهك أيضاً، في لحظة سابقة خطر لي،
 ماذا لو خيرت بنسيان بعض الأمور على حساب
 غيرها لعدم وجود أي زاوية فارغة في رأسي لذكرى

جديدة !!

عندها سألت نفسي هذا السؤال وأجبت بدون تردد سأمحي كل شيء، كل شيء ...
 وأترك تفاصيلك فقط ... إنه الربيع يا لسعادتي به لو كنت هنا ، لكنني أقوم بما كنت ستقوم به لو كنت هنا فكل يوم أشتري وردة بيضاء ، أشتمها وأخبر نفسي أن رائحتي أذكي منها ، واعدود لأخبر ذاتك المتخيلة بجواري بأنها ليست ببياض عينيك ولم تقترب من لون عينيك قط ، وأضحك عنك كما كنت تفعل بطريقة صاخبة مميزة وأعود لأشعر بشيء يشابه ما كنت أشعر به حين كنت تفعلها سابقاً .. إلا أن هذا الشعور مجرد نسخة مقلدة عن الشعور الحقيقي بوجودك الآن ...
 اشتقت كثيراً

//بيننا مليون عصفور وصورة // "

تابعت إلى التاريخ التالي في مفكرة الفتاة
وقرات:

" مضى الكثير ... ألا يكفي هذا، لا زال كل شيء كما هو أخفيك سراً وأنكرت علناً، لا فائدة من جعلني محط شفقة أحدهم بذكري لقصتنا التراجيدية أمامه، كل تلك المسافات لا زالت غير قادرة على إلغاء تلك الذكريات، لا الأمكنة الجديدة ولا الشوارع الغريبة ولا الناس الجدد قدروا على تغيير أدنى شيء فيّ، فتفاصيل سنيي السابقة تحتل كل شيء حولي كجيوش انتهازية من الذكريات، تحول المكان إلى مكان آخر، أنا أسكن باريس منذ 4 سنوات وحتى الآن أشعر أنني في دمشق، لا يحدد المكان بذاته بل يحدد بما نحمله نحن من ذلك المكان وأنا أحمل دمشق كاملة في صدري حيثما ذهبت ولكنّ دمشق حينها كانت في نظري أنت، لا أذكر دمشق لذاتها رغم أنني أحبها حباً جماً يفوق الوصف، لكنني أذكرها لأنك أنت من رسم ذكرياتي فيها ولونها ...

لقد حدث الكثير من الأمور، كبرت في السن بدأت أرى شعرة أو اثنتين وقد تلونتا بالأبيض، لم أذكر حينها سوى عينيك السوداوين، كلما حاولت الهرب عدت مرغمة إلى ذكرياتي فحتى المشيب بات أمراً محبباً لذكرياتي ، الألوان تذكرني بك، لم أكبر في السن كثيراً في الحقيقة فما زلنا في مرحلة تعد مرحلة شباب فلم نبلغ الثلاثين فعلياً بعد احتاج سنة لبلوغها، لكن ذاكرتي ممتلئة بالمقابر فالكثير من ذكرياتي قد شابت و قد هرمت ذاكرتي معها أظن أنها تجاوزت الثمانين لا الثلاثين فقط "

"لا أكتب في مفكرتي أي تفاصيل عن حياتي الآن فهذه الأمور السطحية ما عادت مهمة أبداً، طالما نحن نضمّر الحقيقة في العمق، وأما حقيقتي وسبب كل شيء كان ولا يزال أنت، أحاول فقط أحاول أن أنزعك من تفاصيل حياتي لكن لم أقدر حتى الآن ولا أتوقع مقدرتي على هذا "

"كيف حالك؟! لا أدري أي شيء عنك ولا أعلم
 إن كنت حققت الاستقلال من ذكرياتك أم لم
 تفعل، أتمنى أن تكون فعلت فأربع سنوات من
 تفاصيل الذكريات الجميلة قاتلة لأصحابها، كفيلة
 باستحضار الموت مئة مرة في كل يوم، في كل
 تفصيل وكل انفعال .. كن بخير "

توقفت لبرهة، اعترتني الرعدة المعتادة لكن
 بشيء من الغرابة والاختلاف ...

" 4 سنوات من الذاكرة الجميلة قاتلة لأصحابها"
 أظن أنها محقة ، فها أنا ذا عشت مع ذاكرتي هذه
 عدة أيام فقط أشعر كأنها دهر كامل بكل ما يحمله
 من آلام وأحداث وأوجاع وأفراح وأتراح ،
 شعرت بالشفقة في بداية الأمر إلا أنني تذكرت
 قولها ...

"أخفيك سرّاً وأنكرك علناً فلا فائدة من جعلني
 محط شفقة أحدهم "

يا إلهي كم كانت محقة، فأول شعور اعتراني
 نحوها كان شفقة لحالها، أدرك الآن أنه من الخطأ

الشفقة على المشاعر فالخشوع والعظمة خلقتنا
ليصفا المشاعر وليس الشفقة، الشفقة هي حالي
الآن، هي كرهى لذاتي دون معرفة السبب هي
نقمتي على الحياة التي أودت برجل في نهاية
عقده الثالث، رجل وحيد بئس، منكسر و ضائع
بذاكرة عفنة تميته في كل لحظة ..

ما زلت أجهل سبب كل شيء لديها لكن الشيء
الوحيد الظاهر أن هناك الكثير من الحب في عدة
أوراق ممزقة، ما بالنا بالبقية، الكثير من المشاعر
المتزاحمة معاً في كلمة، سطر، صفحة، كأنها
شوارع مكتظة بالمشاعر بدون أي إشارة مرور
تنظم هذا الاكتظاظ الضخم ..

مدينة كاملة من المحبة خيمت عليها فوضى
البعد، وغيوم الألم، مما بدا واضحاً سفرها هرباً
لتغيير المكان والتفاصيل، ومما بدا بوضوح أكثر
هو فشلها التام في هذا .

أظن أن هاتين الورقتين تفسران شنتة السفر التي كانت تسحبها خلفها في تلك اللحظة وكانت المفكرة بيدها الأخرى، يا إلهي اعترتني نوبة من الأفكار السوداوية، لا، لا يمكن، تجاوزت الأمر بسرعة كي لا أفكر به وتابعت القراءة إلى التاريخ التالي :

"مفكرتي الخامسة والأخيرة لي في باريس، كيف تشعرين؟! وانت تتلقين كل هذا الألم والحب معاً، أعتذر لك عن هذا، لقد أحرقت كل مفكراتي وأوراق ورسائلي غير المرسلة سابقاً، لكن كل هذا لم ينفع بشيء ها أنا ذا أعاود سرد كل شيء كأنه حصل البارحة في لحظة واحدة استرجع ذكريات العشر سنين في دمشق تلك التي عشتها بجواره، اليوم أشعر بشيء غريب استرجع التفاصيل بكثرة على غير عادتي باسترجاع أجزاء منها لعدم احتمالي استرجاع كمية كبيرة من أواني الذاكرة..ربما إخباري بأنني سأعود إلى دمشق نهاية هذه السنة هو السبب، كانت كلمة دمشق كفيلة بعودة سطور المفكرات الأربع وكل الرسائل وجيوش الذكريات إلى رأسي"

"غريب أمر المشاعر تشعلها كلمة واحدة أو نظرة وحيدة
وتعجز كل بحار الأرض عن إخمادها..لقد قطعت وعداً
بأن تكون هذه المفكرة الأخيرة لي، آخر شيء أكتبه،
قررت أن أدفنها في دمشق لا أن أحرقها، فلا فائدة من
ذلك فكل شيء أحرقته طاردي دخانه، لازلت أشم
رائحة الاحتراق عالقة بأنفي رغم ذلك كانت رائحة عطرة
لأن اسمك ملاً المفكرات السابقة وهكذا كنت انت
الوحيد المعني بكل كلمة كتبتها يوماً حتى الغير مفهوم
منها، والساخر منها والغاضب كلها كانت تخصك ، لم
أكتب أبداً عن أي تفصيل أعيشه هنا، رغم كثرتها
وتنوعها وجمالها في بعض الأوقات، فكونك تعيش في
مدينة كباريس يعد حتماً يراود الكثيرين، إلا أنك كنت
الوحيد الذي يحتل قائمة أحلامي الطويلة التي تحتوي
اسمك مكرراً حوالي الألف مرة، أيمن أن أقايس
وجودك الآن بباريس
ماكنت سأتردد صدقني ."

" لا أشعر أن باريس استملكتم ولو جزءاً صغيراً
مني، فدمشق كانت دمشق لأنك جعلت منها
هكذا، لم تستطع باريس بكل أناقتها وروعيتها
ورونق شوارعها أن تهز قلبي ولو مرة واحدة، كانت
أوردتي كأنها شوارع من شوارع الشام وقلبي أحد
أسواقها وأصابعي مقاعد في حدائقها، أتدري
السبب؟! أنت فوجودك في ذكرياتي الدمشقية
جعلها جزءاً مني فوجودك معي في موقف باص
مرة واحدة سيجعل من موقف الباص قطعة من
رأسي وجسدي، لا أشعر بالحماسة للعودة، لكن
ذكرياتي لا تهدأ تريد العودة إلى مكانها، لا أكتب
بانظام في بعض الأحيان تمر أسابيع دون أن
أكتب إلا أن ذاكرتي في كل لحظة تخط عشر
مفكرات عنك أشعر أنني محتلة، أرجو أن تكون
بخير، لطالما أحببت عينيك ..

دمشق تهدي ذكرياتي...
أغنية / ملحم بركات / ارجعيلي "

اعترتني دهشة مفرطة، الأمور مرتبطة بشكل
متشابك جداً، بدأت أشعر أن سببي المقدس
موجود بالفعل، لكن لحظة !!!
أيعقل أن تكون لحظة عودتها إلى دمشق حين
رأيتها ذاك اليوم ، يا إلهي لا لا أود تصديق
هذا، كل تلك الرابطة الشديدة مع دمشق، لا يعقل،
وتلك النهاية المرتبطة بدمشق، لا يعقل هذا
سيكون من الظلم أن يكون ما أظنه صحيحاً.

بدأت بالتاريخ الأول الناجي من مجزرة القدر
لدى الشاب كما وصفت الفتاة سابقاً، بدأت اقرأ :

" لدي الكثير لأخبرك به لكنني أجهل مكان
وجودك، أعلم أنك تحبيني وأنا أيضاً أحبك، أكره
الكتابة كثيراً لكن هناك شيء دفعني لأدون هذه
المفكرة، لقد كتبت عدة أوراق سابقة كنت أمضي
شهوراً بين كل تدوين أدونه، فكما تعلمين كنت
أكره الكتابة بقدر ما كنت تحبينيها، بعيد فراقك
أصبحت أعشق الكتابة والشعر وقراءة الكتب، كل
تلك الأمور التي كنت انظر إليها بسخف يوماً ،
اليوم أحبها، ليس لشيء لكنني أراك فيها، في
السابق كنت معي فلم أكن محتاجاً لشيء يشعرني
بوجودك في جواربي أما الآن وقد مضى وقت
طويل بدأت فيه أتغير شيئاً فشيئاً، اليوم اكتشفت
أني أحب الموسيقى المجردة بدون كلمات كما كنتي
تفعلين، بيتهوفن، موتسارت، أسماء كنت انتقد
استماعك إليها لأنني لم أجد فيها متعة عندها
لكن كنت استمع إليها معك، لم يكن يهم ما

حولي، لا يهم لو كنت أجلس في الجحيم طالما أنك موجودة فهذا كان كافياً عندها، لقد مر الكثير وبقي الكثير أيضاً فالعابر من الذكريات لم يرحل مازالوا في رأسي، المدينة الآن بيضاء على غير العادة، أتذكر قولك أن عيني سوداوان ببياض الثلج، في كل مرة انظر في المرأة استحضر وجودك، أتدرين في فترة سابقة أزلت جميع المرايا من المنزل هنا، لكنني استيقظت في اليوم التالي لأرى كل ما حولي قد تلون بالأبيض فقد تبين لي أن الثلج كان يهطل طوال تلك الليلة..

كأنها رسالة سماوية تقول : عليك اللعنة أعتقد أن الأمر بهذه السهولة ، أدركت عندها أنك أعمق من أن تظهرني كشيء قابل للزوال ، وأنقى من أن يشوبك نسيان ."

" بمرور الأيام كنت أتحوّل الى كائن يشبهك، شيئاً فشيئاً لقد بدأت أرتدي نظارة طبية، لدي مكتبة في غرفتي ومشغل للأغاني وآلة لصنع القهوة وكروسي هزاز وبعض الحلوى، في كل لحظة استحضر السنين السابقة أتوق لأزور دمشق رغم أن زيارتها غير متوقعة النتائج، لا أعلم طبيعة الشعور الذي سيعتريني عند المرور بجانب ذاك المقعد مجدداً، أو ذاك الدكان، أو المكتبة التي حفظني صاحبها بسببك، هل سيذكرني يا ترى، لا أدر، ولكن لا أعتقد أنه سيعرفني بعد تلك السنوات الغابرة لقد تغيرت كثيراً يا عزيزتي أشك أن أمي قادرة على التعرف عليّ، لا أنكر غضبي العارم وكرهني لما حصل في السابق لكنني لا أنكر محبتي لهم، رغم كل شيء، هناك بعض الأشخاص لا نقوى على منع أنفسنا من حبهم، لا زلت أفكر من المخطئ هنا؟! "

هل كان نحن أم هم!! لقد وصلت إلى مرحلة ما لم أرد عندها أي جواب ولم أرد أن أسأل أي سؤال أيضاً ولكن كيف حالك الآن؟! "

ما زلت كعادتي القديمة اشتري كتاباً لك في كل شهر واستحضر وجودك وأهديك إياه وأعاود تخيل ابتسامتك تلك ثم اجلس مرتدياً نظاراتي بجوار كوب القهوة وابدأ بالقراءة، وكان ينتهي قبل منتصف الشهر دوماً، فأظل مترقباً نهاية الشهر لأشتري كتاباً آخر، لقد امتلأت المكتبة الآن، أصبحت الكتب وسيلة لأحسب منها عدد الشهور التي فارقتني بها مجبرة .. "

" أتساءل حول أخبارك في كل شيء أفعله .. حين أذهب للعمل أو للجامعة، وفي كل مقهى أتساءل هل تفعلين هذه الأمور انتي أيضاً، لقد اعتدت تفاصيلك الفائضة، وفي لحظة اختفى كل شيء أظن أنه يحق لي أن أتساءل كثيراً، فذكرياتى لا تهدأ، أتوقع تفاصيل يومك بشكل يومي، لا يبدو علي أي شيء أبدو شبحاً بارداً سخيلاً سطحياً، لا أكثر، إلا أنني أخفيك بأعماق أعماقي ولا أخبر أحداً عنك،

في كل مرة يتم سؤالي هل أحببت يوماً؟؟!
أجيبهم وبكل ثقة لا، لم أفعل، فما كان يوماً لم
يكن حباً بقدر ما كان حياةً، لهو انتقاص من قدره
حين أدعوه حباً، كانوا يسألون السؤال الخاطيء
دوماً، فلو سئلت هل عشت يوماً، لأخبرتهم عنك
حينها، عن تفاصيلك وعن كل تلك الذكريات
التائهة في مخيلتي، أما الآن لست حياً، أظن أنك
كنت ستقولين لي أن استمع لبعض الموسيقى في
حال شعرت بالحزن، إلا أن الأغاني لم تكن من
تحسن مزاجي رغم استماعي لها بل كان وجودك
وكلماتك مهما كانت كنت أجد فيها صدقاً مطلقاً،
أتذكرين حين أخبرتني أن السماء تمطر في
منتصف الصيف سراً، زرعت عندها وردة ولم
أسقها أبداً، أتدرين أمراً لقد أزهرت حينها، لا أعلم
إن أمطرت السماء عليها فقط، أعدت تكرار الأمر
في الصيف الذي فارقته فيه، لم تزهر أبداً، كان
وجودك هو ما يمنح الأمور بعداً واقعياً حقيقياً "

" ما زلت متطرفاً في //
 أما فيما يخص محبتي لك فقد تبرأ التطرف منها،
 لقد تجاوزت التطرف بك منذ سنوات، ما أشعر
 به أسمى من أن يشرح أظن أنه يكفي الإنسان
 معرفته بوجود شخص واحد في هذه الحياة يفرح
 لفرحه بصدق وشغف تام ، وقد اكتفيت بك عن
 العالم بأكمله // "

" مجبر على العيش رغم كرهني لهذا، أتعامل مع
 الأمور بلا روح، يظن الآخرون بأني منعزل وغير
 اجتماعي إلا أنني لا أتعب نفسي بالتوضيح فمن
 الجيد بقاء بعض الأمور نقية لدرجة الصفاء
 مقتصرة على الأطراف المعنية فقط أنت وأنا لا
 غير، استمراري في الحياة لا يعني كرهني لك، أو
 نقصان محبتي، كل ما في الأمر أن الوقت يمضي لا
 أكثر ونحن نتماشى معه فقط لا أعلم إلى أين،
 أشعر بنعاس شديد جداً وإرهاق، أود التوقف
 لكن يدي لم تؤلمني بعد، أخاف أن يقرأ أحد

مفكرتي فيكتشف قصتي، لا أريد لأحد أن يقدم لي شفقة بأسة يكفيني ما مررت به من البؤس في السنوات الماضية ، أظن أنك توافقين الرأي، أتذكر انفعالك لكلام بعض الأصدقاء قبل فراقنا، وغضبك العامر على كلماتهم الموجهة لنا كنوع من الشفقة، أخبرتني أن لا أحد منهم قادر على فهم الأمور لا نحتاج تلك السطحية والشفقة، كنت أعلم أنك تحبينهم ولكن انفعالك هذا كان بسبب الضغوطات الكبيرة التي عشناها في الفترة الأخيرة في دمشق، لقد كانت الأمور متشابكة وقاسية، كل شيء كان معادياً لنا

كل شيء الآن وقد/////////////////////"

كان النص غير واضح، الدماء حجبت الكثير من الأسطر، ولم أشأ تركيب جمل أو افتراض أحداث وصياغتها من جديد فهذا اعتداء على قدسية هذه الكلمات لقد ارتأيت أن اتخطاها فحسب وأنا أشعر بشيء لا يوصف، كأنني أطلع كتاباً مقدساً للحب إلا أنها آية تنذر بعذاب الحب وجحيمه لا نعيمه وسلامه.

تعتبرني الآن دهشة مفرطة اتجاه الأحداث
الحالية، لم كل هذا الترابط العجيب بين الأمور
إلى أين سأصل من كل هذا

هذا السيناريو المتخيل الذي رسمته في مخيلتي
بدأ بإزعاجي حقاً لا أريد تخيل المزيد من
السوداوية، هناك الكثير من التفاصيل القاتلة التي
تشغل بالي الآن أحاول أن أجد متسعاً واحداً أو
زاوية فارغة في رأسي حتى أفكر لكن التزاحم
الشديد في رأسي منعي من هذا، أعاني كثيراً من
الألم الشديد في أذني و رأسي، كان الجانب
المنطقي الوحيد المتبقي في رأسي يخبرني بأن
أذهب إلى الطبيب إلا أنني لم استمع إليه وبهذا
أكون قضيت على آخر أفكاري منطقية .

أملك آلاماً أشد من الألم الفعلي فالآلام الذكرية
والصور الحية التي تعبر رأسي كل دقيقة تغتال
كل شعور للإحساس بالراحة والسلام، تلك
الجثامين الممزقة والدماء المنهمرة تحتل ذاكرتي
بقسوة، لا يمكن أن أعود كالسابق بعدما حصل،
كيف لرجل في الثلاثينات من عمره أن يتوقع
هذا، لقد كنت أظن أنني رأيت ما يكفي من الحياة
في عمري هذا، لقد كنت مخطئاً وبشدة، لا يمكن
العودة من هذا الآن، أشعر أنني إنسان آخر لقد
لامست إنسانيتي الدفينة للمرة الأولى، شعرت
بها بشكل حقيقي، خاطبتها ووبختني عندها، كيف
لنا أن نغفل هذا العمق ونتجاوز هذه الأمور، لم
يخطر في بالنا يوماً أننا وفي لحظة عابرة قد
ننتهي للأبد، لم يخطر في بالنا يوماً أن كل ثانية
من وقتنا عمر بأكمله، تفاصيل كون بأكمله، يا
للسطحية المفرطة التي نعيشها، الآن وفي كل
ثانية تمر استحضر شعوري الإنساني الدفين
واتذكره لأحافظ على كوني حقيقياً .

تعتريني رغبة شديدة بالصراخ إلا أن عدم قدرتي على سماعه هو ما منعي من هذا، تعودنا بحكم التجربة أنه كلما زادت سرعة السيارة التي نقودها تصبح أبسط الحركات في المقود كفيلة بانتشالها من مسارها نحو سبيل آخر تماماً، هذا ما حصل معي، كنت مسرعاً في حياتي في سبيلي، لتأتي حركة بسيطة من مقود القدر لتعيد ترتيب مساراتي في عدة ثوان فقط، استغرق الأمر من الحياة برهة لتغير مجرى حياة رجل بلغ السابعة والثلاثين لم يتوقع أبداً حدوث هذه اللحظة، في هذا الوجود لا تتوقع فكل شيء محفوف بالتغيير، في منتصف هذه الفوضى التي استملكنتي نظرت مجدداً إلى مكتبي إلى تلك الأوراق سارحاً في ذاكرتي التالفة، أحاول العثور على مخرج من كل هذا، إلا أنني لا أقدر، أحتاج شيئاً يقتلني من ذاتي إلى أي مكان لا أبه، أريد التخلص من كل هذا فقط .

إلا أن خيال والدي الذي بدأ يحوم حولي جعلني
أتمسك بكل هذا الألم، أريد رؤيته، فإن كانت هذه
الأوجاع والذكريات المؤلمة طريقاً ليزورني
طيفه فلا بأس بكل هذا ...

كنت أسقط في كل مرة لأجد نفسي متكاً على
كتف والدي، في كل مرة أسقط أجد نفسي ثابتاً
بجواره، الآن أسقط وأسقط وأهوي حتى الآن ما
وجدت أرضاً أرتطم بها أو كتفاً استند عليه، ما
زلت معلقاً في فراغ لا أدري أهو نحو شيء لا
أدرك ماهيته، كم احتجت يده القوية المملوءة
بالندوب أن تشدني لأعلى، كم أتمنى أن أسقط
لأجد راحة كفيه في الأسفل، إلا أنه ليس هنا،
للمرة الأولى أشعر بالوحدة في هذه اللحظة بدأت
أشعر بحقيقة ما حصل .

حين يتعلق الأمر بالفقد، يكون اختفاء الأب كفيلاً
بتوضيح تفاصيل المصطلح كافة بلا استثناء .

ليس كل ما نحبه سبباً لسعادتنا، فالحياة لن تهدينا كل ما نتمناه فللقدر آراء وللنصيب آراء أخرى وللحياة قوانين لا تخترق أحياناً، جبال من الأحلام قد تهدمها حصىً من الواقع، الأمر ليس متعلقاً بالأحجام أعزائي ولا بالأشكال، الأمر متعلق بما يدور من حولك، تجربتي المريرة كانت كفيلة بجعلي شخصاً آخر، احتجت أن أرويها كي أجنب بعضكم الحاجة إلى تجربة مريرة في سبيل الحصول على إجابات أو تفسيرات منطقية في الحياة، من الخطأ انتظار المأساة حتى نشعر بإنسانيتنا، علينا العودة إلى ذاتنا في كل ثانية تمر، علينا إدراك العمق في أمورنا ليس من الضرورة أن يحبك كل ما تحبه لكن من المؤكد أن تحب ما أحببت دوماً، حتى النهاية.

كيف لبستاني أن يغفل عن أصغر زهرة في
حديقته، هي أمور لا تقبل التفاوض في بقائها،
هي أمور تبقى لا يغطيها الزمن بغباره، لأن
الذكريات تغسلها بالدمع والندم كلما هبت رياح
الحنين ونسائم الأحلام المنتظرة أن تتحقق .

لم أتعلم الكثير بعد ... لكن تلك التفاصيل التي
مررت بها جعلتني أتعلم ما يكفي لأعيش كإنسان
يلامس إنسانيته الدفينة طوال حياته الباقية الآن
وأنا أعيد سرد الأحداث التي غيرتني أشعر دوماً
أن هنالك الكثير من الأمور الأخرى التي فاتتني
حينها، لامست إنسانيتي بشكل كاف جعلني أشعر
بكل شيء وها أنا اليوم أشعر بأني سأفارق هذه
الحياة بوقت ليس بطويل، لذلك أعدت سرد دفاتر
مذكراتي القديمة بطريقة ناضجة تخلو من
الضياع، تستوقفني بعض الأمور اثناء سردي هذا
فأطيل في ذكرها دون أن أشعر، أعلم أن من يقرأ
الآن يشعر بالغرابة والفضول لمعرفة التفاصيل،
ما زلت أحاول بالرغم من نظري المتعب
وصحتي المتقلبة أن أعيد وصف الأحداث بشكل

دقيق، أن أسرد لكم وقائع القصة ذاك اليوم و النتائج التي ترتبت عليه، انعكست أحداث ذلك اليوم بقوة على مسار حياتي، لقد تغيرت كثيراً تمنيت لو أنني قضيت في ذلك اليوم على أن أحمل معي كل هذا الألم وكل هذه الذكريات، كل هذه التفاصيل التي تنهش ذاكرتي كل ليلة قبل أن أخلد إلى النوم ما زالت تؤرقني كأنها حصل البارحة، رغم مرور السنين الكثيرة مازال كل شيء مرتبطاً بدمشق كأنها محور أتراني الأبدي، محور ضياعي وموقع إنسانيتي، فلو أردت موقعاً جغرافياً يصفني، لاخترت دمشق، لقد هزمت كثيراً مقارنة بالأيام التي أتحدث عنها الآن، عندها كنت قادراً على إنهاء علبتي سجائر في يوم واحد، اليوم لا أقوى على إنهاء اثنتين .

أحاول سرد القصة دون التوقف عند بعض الأمور، لكنني لا أقدر يا أعزائي، أرجو معذرتي فتزاحم الأمور في داخلي يكاد يصيبني بالجنون، كل شيء يريد أن يجد مخرجاً مني إلى هذه الأوراق القليلة، ما زلت مصراً على إعادة سرد

مذكراتي القديمة بقلب إنسان هرم أردته
الذكريات تائهاً بينها يقرب أحداثها متأماً إنسان قد
شابت أحلامه واوهامه كما شاب شعره، أجلس
الآن في إحدى مقابر دمشق، الشيء الوحيد الذي
يعزيني بكل شيء هو حديثي عن تلك الفترة
بصيغة الماضي، أرجو ألا تتكرر تلك الذكريات
مخلفة خلفها أناساً تائهم مثلي، ينازعون ماضيهم
في كل يوم كي يحيوا ما تبقى لهم بسلام ، تقلقني
النهاية بقدر ما اتوق إليها فهذه الذاكرة قد طال
احتلالها وأن الأوان كي ينتهي كل شيء، سأعمل
على أن تنال الأمور ما تستحق، فهنا الآن أجيال
تحتاج هذا وبشدة.

سأعود الآن الى أحداث تلك الأيام ...

جلست صامتاً ما يكفي من الوقت بعد قراءتي
الأوراق الأولى من دفتر ذاك الشاب ثم نهضت
بقوة أمتني نحو المطبخ، صنعت إبيريقاً من
القهوة وأحضرت علبة سجائري ووضعتها على
المكتب وهممت اقرأ ورقة تلو الأخرى ...

لا يجوز الحكم على لوحة لم تكتمل، لربما كانت
صورة لوجهك وأنت لم تدرك هذا بعد.

"قد تدور حرب في داخلك إلا أن سبب هذه الحرب يكون في سلام، أرجو أن تكوني في سلام، يا لتفاهة الخيبة... الخيبة، هي تلك الأشياء التي تحصل عليها ولا تفعل هي تلك الكلمات التي تقولها ولا تفعل، الخيبة فنجان من القهوة وضعنا فيه الملح بدلاً من السكر لاختلاط الألوان علينا، ثم تجرعناه بلهفة لنجد طعمه لا يطاق، كم كانت الأمور واضحة أظن أنها تحتاج بضعة الآلاف من السنين فقط لتفهمها، أما الآن كيف حالك؟! اليوم كما سابقه ما زلت أتذكر تفاصيلك بوضوح تام كم //"

هممت إلى الورقة التالية مباشرة دون أدنى تضييع للوقت :

" فإلس الربيع.... كلما حاولت أن أعزفها أتذكر تعابير وجهك التي كنتي ترسمينها في كل مرة تستمعين إليها، كنت أقول في نفسي أن 'شوبان' ألفها كي يرى تعابيرك تلك لا أكثر.... إلا أنه لم يكن محظوظاً برؤيتك مثلي .

كأن مفاتيح البيانو صنعت لك وحدك، كي تعزف هذه المقطوعة وتتأمل تعابيرك الملفتة في حينها، أحاول متعباً ألا أغمض عيني حين أعزف إلا أنني أجد نفسي أمام وجهك الفاتن مغمضاً عيني عن العالم ومطلقاً بصري على وجهك وحدك .

حين أخبرتني يوماً، أريد أن أعرف ما الذي يدفع بعازف البيانو إلى إغماض عينيه وماذا يرى حين يغمضهما، كنت عاجزاً عن الإجابة إلا أنني اليوم اكتشف أنك الجواب لسؤالك هذا بالنسبة لي، أما بالنسبة للآخرين يبدو أنهم يمتلكون ملاكهم الخاص أيضاً، فهم بإغماضهم لأعينهم يزورون الجنة، من الرائع أن تكون "////////////////////

وكالعادة كانت بقية الورقة غير واضحة وممزقة.

'فالس الربيع' لم أستمع لها من قبل، كانت تلك اللحظة الأولى التي تمنيت فيها عودة السمع إلي، كي أستمع إليها فقط، كم تبدو جميلة، أود حقاً الاستمتاع بها، شعرت بإحباط كبير حينها، أوقفت جهاز الموسيقى ثم فتحت هاتفني متجاهلاً كل

الإشعارات المختلفة والمكالمات وبحثت عن تلك المقطوعة وقمت بتشغيلها بأعلى صوت على جهازي المحمول، ربما لم أكن أسمع إلا أنني شعرت بشيء لا يوصف، شعرت بالجمال والصدق كأن أوراق المفكرة كانت تهتز محاولة الرقص، للوهلة الأولى شعرت أن الأحرف تحولت إلى تدوينات موسيقية... ومفاتيح صول .

لا، لا شيء خاطئ في هذا الوجود كل شيء محببك بإتقان تام، كل ما نراه هو لوحة واحدة متكاملة متراسة ترسمها التفاصيل البسيطة التي قد لا نكثر لها أبداً، تصورها تلك المشاعر التي تمر بنا في الداخل سراً لمدة صغيرة ثم تمر تاركة أثراً في داخل صاحبها، التفاصيل التي نعتقد أنها سخيصة، الصدف التي يخيل لنا أنها صدف، عذراً صديقي ليست بصدف وليست ببسيطة، إنما هي أمور مرسومة بإحكام، متقنة الصنع عندما تتجلى لك أهميتها وعندما تشعر بعمقها فأنت عندها فقط أدركت الحياة، لا تستهن بالتفاصيل التي تغزو يومك، تفاصيل لحظاتك

الخاصة، هي لم تخلق عبثاً، لا تتجاهل إشارات الحياة الممتدة على طول الوقت لا تستهن باللحظات يا صديقي، فهناك شيء أعمق من الإدراك البسيط، هناك كون كامل في كل لحظة لا تكن سطحياً ادخل في التفاصيل، ابحث عن الإيمان الأعمق لديك هناك أشياء أكبر من أن يراها البسطاء، لا تكن بسيطاً كن عميقاً مؤمناً جد إيمانك العظيم، جد عمقاً في هذا الفراغ الهائل المستوي وادخل به، إياك والسطحية في كون يحتاج التعمق لإدراك معناه .

اذكر كل شيء في تلك الأيام القليلة، التي تلت الحادثة بل واستحضر ذات المشاعر التي سيطرت علي حينها أذكر دهشتي الأولى وحرني وألمي وارتباك، كل شيء بتفاصيله .

كنت لأزال أشعر بالخيبة لعدم قدرتي على
التمعن الكامل في تلك المعزوفة، فنهضت إلى
سريري والأفكار تنهش رأسي مازالت بقية
الصورة مشوشة وذاكرتي مهمشة تقريباً،
فوضى، فوضى في كل مكان في داخلي، لم
أستطع النوم عندها، فنهضت محاولاً استكمال
بقية الصورة لتلك القصة، علي أمسك طرف
القصة أو علّ الأمور تتضح قليلاً بالنسبة لي، لقد
سيطر هاذان الشابان على كل أفكاري حينها
تجاهلت كل الأمور التي تعصف في ذهني
وركزت جهدي كله في فهم مجريات القصة التي
بين يدي، لم أعلم ما المؤلم حقاً، انعزالي عن
ذاكرتي البائسة بعد ذلك الحادث أم محاولتي
البائسة لفهم قصة كتبت بحروف صاخبة من الألم
والتي قدر لها أن تنتهي ذلك اليوم أيضاً، ما زال
التساؤل يقتلني كيف لقصة كهذه أن تنال نهاية
كتلك، في دمشق، كم أحب دمشق وكم أكره
ذكرها، ففي كل مرة أكتب دمشق ينتفض جسدي
بخشوع متذكراً كل شيء.

أمسكت الورقة التالية من مفكرة الشاب وقرأت:
 "صديقتي، عزيزتي، أمي، أبي، أختي، أخي، معلمتي،
 تلميذتي، جارتني صديقتي، أقاربي، وفي الختام
 حبيبتي :
 أما بعد ... أحاول وأحاول لكنني دائم الفشل، أنا
 دائم الشعور بالذنب، لا أعلم أي ذنب اقترفه
 تحديداً إلا أنني أشعر بالذنب المفرط في كل شيء،
 واتساءل دوماً هل فاتني شيء، هل فوت حلاً ما
 !! أم هل استسلمنا قبل فوات الأوان.. رغم
 معرفتنا بحتمية فشلنا نظراً إلى الواقع الذي
 نعيشه، تتآكل ذكرياتي بعضها، أحتاج أجوبة
 مقنعة توقف هذه الأسئلة المتكررة بقدر ما
 أحتاج رؤيتك ولو للحظة عابرة، تستوقفني أسئلة
 تجعلني أشعر أننا كنا على خطأ، وأن القرار خاطئ
 ، لا ادري لازلت تائهاً ولا أنفك أفكر هل فوتنا
 شيئاً ما ...

أحتاج إهداءك أغنية لفيروز وبشدة، حقاً أحتاج
أن تسمعها ...

'يا ريت منن..مديتن أيدي وسرقتك' "

"يا ريت...." اتساءل، هل كان بالإمكان فعل هذا
وسرقة ما خسرتة قبل أن يسبقني القدر ويأخذ كل
شيء ..تابعنت :

" اليوم...

سُئلت أثناء استلامي لأحد جوائز التقدير في
الشركة التي أعمل بها، إلى من سأهدي هذا
النجاح، وكيف لشخص مثلي، شخص عادي، أن
يكون متفوقاً كل هذا التفوق، اكتفيت بالابتسامة
فقط، فقد كنت أعرف أسباب نجاحي وأعلم تمام
المعرفة الشخص الوحيد المستحق أن أهديه هذا
النجاح، أجل أنت، أظن أن دعواتك لي مستجابة
كما كانت من قبل، اليوم أدركت أنك ما زلت
تدعين لي في صلواتك الخفية، كما أخبرتني ذات

يوم أن اسمي مقرون في كل شيء نقي وكل دعاء
 صادر عن قلبك، سواء أحزنتك أم لا فاسمي لن
 يزول، كانت تلك الجملة كفيلة بجعلي أشعر
 بالاطمئنان لبقية حياتي، لذا أهديك اليوم ما
 تعبت لأجله في صلواتك، وأشكرك كثيراً على كل
 شيء....كوني بخير"

"حين تمر النيازك...

تمتلاً السماء بالأحلام والأمنيات....
 اليوم كعادتي القديمة راقبت السماء مطولاً منتظراً
 مرور نيزك أو كما كنت أسميه شهاباً، أذكر خلافنا
 الدائم بشأن اسمه، كنت تصرين على دعوته نيزكاً
 وأصر على دعوته شهاباً، أتدرين أمراً..
 النيزك أجمل، لقد اقتنعت، فهلا عدتي...!!؟؟
 كنت مستسلماً للأمور لم أرد أي أمنية سوى
 عودتك إلا أنها الشيء الوحيد الذي لن يحصل،
 رغم هذا سأظل أرتقب تلك النيازك آملاً أن
 يستجيب أحدها إلى أمنيته ..

لم نعاقب على اختلافنا؟؟
 رغم عدم اختيارنا لهذا الاختلاف، لهذا الانتماء، لا
 أعلم ما الفكرة من شيء كهذا ...
 ما زلت أجد صعوبة بالغة بل أجد أنه من
 المستحيل تقبل هذه الفكرة...
 هناك الكثير من الذكريات في رأسي لقد تجمعت
 معاً كأنها تحاول الخروج للبحث عنك، أتمنى لو
 أمكنني إخراجها عليها تحضرك إليّ.
 أشعر أن تفاصيلنا معاً تحتل كياني، لا يمكنني
 تجاوز وجودك في داخلي، أنت مرتبطة بكل
 تفاصيلي وستبقين كذلك ...
 كنتي متعلقة بل مولعة بالأغاني، كنتي تربطين كل
 شيء بأغنية، في كل مرة تبهريني بربطك العجيب،
 هل تسمحين لي أن أربط حالتني هذه بأحد أغاني
 كاظم، تلك الأغنية التي أنسى اسمها وفي كل مرة
 تقولين أي أغنية؟! فأقول تلك الأغنية الطويلة
 التي تستغرق ساعتين فتضحكين قائلة 'مدينة
 الحب' وتحديداً حين يقول ////////////// "

لقد كانت الورقة غير واضحة المعالم لكن أعتقد أنه يقصد هذا المقطع ... حين يقول القيصر:

' يخيفنى الليل والذكرى تعذبنى
وحارب النوم ذاكرتى وأجفانى'

لكنه لم يكن واضحاً....
إن كان قد صفع وجهه حينها...

"عليك اللعنة... أيتها الذكريات... لا أكثر..
 كيف تجتاح الذكريات كياني في لحظة، لقد مررت
 بصحبة صديق لي -وليست فتاة فاطمئني- إلى
 أحد دور السينما هنا، لقد كان فلمك المفضل،
 عليّ اللعنة لم دخلت؟؟!
 لا أعلم سبب دخولي رغم رؤيتي للعنوان، إلا أن
 أقدامي توجهت إلى الداخل دون/////////عظيماً.

مرت حوالي الساعتين من الفلم، استحضرت
 وجودك في كل لحظة كأنك الوحيدة حولي، هلا
 عدتي كي نشاهده مجدداً "

" علينا إدراك ذاتنا في لحظة ما ، لك يكن ليفيد
الندم أبداً، علينا التعلم والمضي قدماً ...
أجيد الكلام جيداً، لكن لا أستطيع الامتثال له
بشكل فعلي، ما زلت أحتاجك هنا، وأعلم أنك
موجودة بداخلي، مرت أيام كثيرة منذ كتبت شيئاً،
تعاقب الكثير من الفصول ..

قرأت الكثير من الكتب، استمعت إلى كل
معزوفاتك المفضلة مئة مرة بل وأكثر، وفي كل مرة
أبدو كأنني استمع لهم للمرة الأولى ، كما أنني أعود

////////////////////////////////////

دائرة أدور تكونين أنت مركز الأمور برمتها ، كما لو
أن لا شيء في هذا الوجود سواك
'تعي وماتجي' "

" أشعر أنني خال من كل شيء سوى الذكريات،
 كيف لأحدهم أن يعيش في الماضي، لا اعلم
 سببياً للخروج، أو بالأحرى لم أرد أن أخرج يوماً،
 فمعرفتي أنك في ذاكرتي أمر يبعث في الأمان
 والسلام.. كوني بخير ... "

لم يكن شعوراً مقتصراً على هذا الشاب في هذه
 اللحظة، فقد كنت خالياً أنا الآخر، تركت أوراق
 الشاب وأمسكت الورقة التالية من مفكرة الفتاة،
 محاولاً فهم الأمور بشكل أوضح، لأربط
 مجريات ما حصل، وأشغل نفسي الآن عن نفسي

..

وبدأت اقرأ :

" علينا إدراك الخطأ قبل التوغل في الحماسة ،
 عند اعتناقنا للأمور يجب علينا التأكد من
 تقديسنا للطقوس قبل أن نتمسك، لأن ثمن
 الإلحاد المفاجئ في بعض الأشياء قد يكون مكلفاً
 إلى حد لا يمكن تخيله، يكاد التفكير يقتلني أريد

أجوبة لأسئلتني التي // " "

"هي أشياء تختلف من أحد لآخر، هي أمنيات
تحتاج أمنية لتحقيق
فكم حملنا مناظير الامل لتتعقب قدومها من
آفاق الحياة ونحن نتساقط من خيبة عدم
قدومها كحبات البرد، إلا اننا لسنا ببياض ونقاء
تلك الحبات ...فقد لوثتنا أوهام متعفنة وأردتنا
مرضى في مستشفيات الخذلان من الواقع، حتى
لم نعد نريد فلم نعد ننتظر أي شيء ..
لكننا لم ندرك حينها أو لم يخطر ببالنا أننا حملنا
تلك المناظير بالمقلوب، لم أدرك يوماً أنني
سأحظى بكل شيء كما هو الحال الآن، جميع
أحلامي تحققت بشكل تقريبي ولكنني لم أدرك
أيضا أنه من الممكن أن أتمنى أن أخسر كل شيء
لأجل شيء آخر ...ك أنت مثلاً، سلام عليك "

"مفكرتي الغالية كيف حالك.. أتوقع أنه أفضل من حالي بكثير، أشعر بالصداع، فقد كان يوماً متعباً بحق، لكن أرجو أن انال ما يكافئ هذا التعب لا زلت أجهل إن كان عائلي سترى ما أحققه من نجاح هنا ، لا اعتقد أنهم مهتمون بمعرفة ما يحصل لي الآن ...

أحاول بدأ الحديث متوجهة لمفكرتي كي أخدع نفسي قليلاً ...

يتوجب أن يراودك شعور بالفخر لو كنت هنا، الأيام تمضي بسرعة مخيفة، أتعجب كيف تكبر في العمر ولا زالت ذاكرتنا ثابتة في مكانها لم تتحرك قيد أنملة!؟!؟!!

هل الأمر طبيعي لدينا جميعاً... هل نملك جميعنا تلك النقطة التي تجبرنا على العودة إليها مرغمين، أم أنني كنت المستثناة الوحيدة من قوانين

الطبيعة، لقد مللت الأمور هنا، اشتاق دمشق،
واشتاق العودة بقدر خوفي من رؤية الدمار الذي
يحل كاللعنة علينا، ماذا حصل لنا ؟!

لم أخشى الألم أو ما ستؤول إليه الأمور .. خشيت
شيئاً واحداً هو أن تبقى هذه الذكريات تطاردني في
يقظتي وأحلامي، رغم كل شيء، يكفيني ما أملك
من الذاكرة .

يعتريني الشك والأفكار حول ما إذا كنا نستحق ما
يحصل الآن، أهو عقاب على سطحتنا المفرطة
أم على استهتارنا وتمردنا على ذاتنا، أم أن السبب
أبسط من ذلك، لا أؤمن بالأسباب العابرة
والمسببات المنظور لها كصدفة

لا صدف في الحياة، هي مجرد أقدار مرسومة ولو
استطعنا تغيير الحاضر لوصلنا لذات المستقبل ..
لا يمكن للأخرين الإحساس بك، فهم في عالم آخر
مختلف تماماً عنك ... لم يختبر أيّ منهم ما مررت
به لذلك لن // "

" أبحث عن الكثير من الأجوبة لأسئلة
لم أطرحها بعد ...
أحاول العثور على ذاتي مجدداً، كأنها إبرة في كومة
وحل لا قش فالقش يمكن إشعاله بالنار لنجد
الإبرة بسهولة، إلا أن خيار النار لم يكن متاحاً في
وضعي أبداً ..
أدعو ليل نهار لسلام وطني من كل شيء، ولما كان
الوطن كل شيء كنت انت في قاموسي أحد
المرادفات لكلمة وطن، ففي كل دعاء لك نصيب،
سلام عليك "

" تؤلمني الوقائع، تؤلمني بلادي في حالتها هذه...
غالباً على من يستحقون الموت أن يعيشوا لفترة
طويلة ليس لشيء ولكن لندرك موت من يستحق
الحياة ليعيش هؤلاء التافهون، فالموت غالباً

يشعرنا بتفاهة من نحن ..
لقد أرعبتني صور اليوم ...
أرجو أن نتقبل الخبر بعزيمة وصبر، لقد كانت آثار
الحرب قد اقتربت نحونا بشدة للمرة الأولى أشعر
بالرهبة تعتري جسدي، لا يمكن أن نهزم فدمشق
لم تترعب عرش البلدان عن عبث، سأعود إليك
دمشق، انتظري قدومي في أسرع وقت ..
لست وحيدة كوني مطمئنة، أدعو لك بالسلام في
كل لحظة، وأدعو إليك كما أدعو لوطني ..
سلام على دمشق، سلام على الوطن، وهذا
يشملك أنت "

كانت الأمور تتضح شيئاً فشيئاً، ودهشتي بما
يحصل تزداد شيئاً فشيئاً، إن دمشق تؤلم أولئك
الذين يملكون ما يكفي من الألم لبقية الحياة، كيف
لا، فكل هذا التعلق والذكريات السابقة تنظر إلى
دمشق على أنها جنة وليست مجرد مدينة جميلة،
أما أنا فلا أعلم ما نظرتي اتجاه دمشق أهو حب
أم غضب أم مجرد ألم لا يوصف .

أخي الصغير، لم يكن صغيراً حقاً، فقد كان شاباً
 ذو هيئة ضخمة متناسقة شديد الولع بالرياضة
 ومحباً لصحته، أشعر أنه يقف أمامي الآن بنظرته
 الغاضبة مستهزئاً بعلبة السجائر التي أمامي، أود
 التدخين كما التنفس كي استحضر وجوده على
 الرغم من استحضاري لوجوده الغاضب لا
 السعيد.... إلا أن هذا كان مرضياً لذاكرتي التي
 لم تدرك بعد حجم خسارتها، أو أنها أدركت ولكن
 تقبلت ما حصل منحنية على صدوعها التي بدأت
 تظهر في العنن ...

علينا تعلم الانكسار من غير صدوع و من غير
 تشقق، مخيفة هي الفكرة بقدر ما هي مستحيلة في
 بعض الأوقات إلا أننا قادرون على ملئ كل هذه
 الصدوع بأشياء مثل الذكريات التالفة والأمانى
 البائسة وبعض الألم .
 يمكننا ترميم الجراح ببقايا الذكريات كي نخفي

الخسارة الفادحة التي نعانيها، علينا الاكتفاء
 بالقول 'بخير' عند سؤالنا عن حالنا، لأن الحقيقة
 أصعب من أن تروى كجواب لهذا السؤال البسيط
 الذي يقال بشكل روتيني غير مقصود المعنى
 الحرفي، مجرد كلمة لافتتاح حديث عابر لا أكثر،
 كانت حاجتي للشعور بأن هناك أمل في الحقائق،
 حاجتي للشعور بالقليل من السلام كفيلة بتلقي
 بهاتين المفكرتين، لربما صدمتي بما حصل
 جعلني أكثر تعلقاً، أصبحت متعلقاً بالأشياء
 العميقة المعنى بالحقائق الفعلية لا بأقنعة الحقائق
 السطحية .

حالتي النفسية التي مررت بها جعلتني أشعر
 اتجاه هاتين المفكرتين بأمر لم أتوقع شعوري
 بها في حال صادفت هاتين المفكرتين في وقت
 سابق، لربما يستغرب الآخرون سبب نظرتي
 العظيمة لما بين يدي الآن، سيشعرون بالسخافة
 اتجاهي لتعاملي الحساس وتلقي الكبير بأحداث
 هذين الشابين، فهم لا يعنون لي أي شيء وليسوا
 بأقارب مني، ولا أدري الأسماء أو أي شيء
 عنهما، إلا أن الإنسان الملامس لإنسانيته ينظر
 للأمور باختلاف تام، هذا ما اكتشفته بعد ما
 حصل، لا أتوقع تفهماً من الآخرين بهذه السهولة،
 فهم لم يكتشفوا بعد هذا الطريق المؤدي إلى
 حقائق الإنسانية الدفينة داخلنا، أو لربما تأثروا
 بهذا للحظة أو اثنتين ثم بكل سطحية تجاوزوا
 الأمور كأن شيئاً لم يكن .
 أنا الآن غير قادر على تجاوز وردة في طرف
 رصيف مشاة، نبتت بين أحجاره معرضة للدهس

والانتهاء في أي لحظة، وردة تقف بكل شموخ
على حافة الهاوية النهائية لوجودها ...

أصبحت أجد في أبسط الأشياء أموراً لم أكن
لأفكر بها أبداً، أصبح لنسمات الهواء حكاية
ولرؤيتي الشمس حكاية أخرى، وبإمساكي قلماً
بعداً آخر، بدأت أرى الأمور كإنسان للمرة
الأولى، إنسان ترفع عن السطحية التي أحاطت
بتفاصيله طوال حياته، بدأت أحلق في سماء
تحوي غيوماً لا تعد ولا تحصى وعلى كل غيمة
أقمت لتفاصيل الأمور، أمر به فأقدس اللحظات
العابرة والكلمات التائهة والنظرات الخفية وأقدس
عصفوراً يرمي بقذارته على وجهي، لقد كان
محققاً حين كان يفعلها، أما الآن أثق تمام الثقة أنه
لن يتجرأ على اقتراف هذا معي مرة أخرى .

تابعت قراءة ما تبقى من الأوراق ..
أمسكت بأوراق الشاب مجدداً وقرأت :

" مشبع بك حد الامتلاء ...
وممتلئ بالذكريات حد الارتواء ...
أتذكر اليوم دمشق كثيراً لربما هي تتذكرني أيضاً،
كم أتوق إلى زيارتها، لا أهتم لما سيحصل لي، أريد
العودة إليها .
تمر بذهني أطياف عابرة تعيد لي ذكريات الطفولة
في دمشق، كأن العشر سنين التي عشناها معاً لم
تنتهي بعد.... اذكر زيارتنا الكنيسة معاً في ذلك
اليوم الماطر، واستفساراتك الكثيرة عند دخولنا
وخوفك من أن يمنعك أحد من الدخول إليها ..
إلا أنني أخبرتك عندها أنها ستكون أسعد كنيسة
في العالم إن قمتي بزيارتها، حينها تذوقت القربان
الذي نصنعه في قداشنا وأصررت على تناوله مرة

أخرى وأخرى، حتى أنك أردت تعلم صناعته في
المنزل
ذاك الصباح حين أحضرت لي بعضاً منه وقد
صنعته في منزلك بعد اطلاعك على كيفية
صناعته، شعرت عند تناوله وكأنني أبارك من
السماء للمرة الأولى في حياتي، أتصدقين؟!
لم اتناول أي قربان في أية كنيسة بعد رحيلك ..
كل هذا ولم ///"

يا للواقع بدأت الصورة بالارتسام بشكل شبه
واضح، الأسباب المجهولة والوقائع المخفية
المسببة لهذه الكارثة الإنسانية اتجاه بعض
المشاعر الصادقة، هذا لا يعقل فقط، ما الذي
نفعه لأنفسنا، ما الذي نقدم عليه، نقبل بدمار
أرضنا ودمار حياتنا ونرفض إعمار مشاعر
صادقة بيننا، بالفعل كنا نستحق ما يحصل، لقد
تجاوزنا الحدود المسموحة لنا بالتعدي على حقوق
المحبة والسلام، بتنا نقوم باصطناع الحروب،
عند عدم وجود الأسباب كنا نختلقها، لا أدري

لماذا إلا أننا كنا نسعى للحروب رغم مقدرتنا
على إحلال السلام في كل شيء، أيعقل أن نعيش
عقاباً بسبب بعض المجرمين الذين اعتدوا على
حرمة الإنسانية والحياة ...

لكن إن نظرنا إلى الأمور بشكل منطقي نجد أن
سكوتنا عن هؤلاء هو جرم مماثل فإن لم تعترض
شيئاً فانت تسانده لا يوجد رمادي في هذه الأمور
التي تتعلق بما نحن عليه، فإما أن تكون إنساناً أو
لا، لا يوجد حل متوسط بين الإنسانية و عدمها،
من المعيب ألا نختار بحجة عدم معرفتنا،
فرفضنا الاختيار بحد ذاته خيار لكنه مخفي،
نحاول خداع من حولنا بأننا اخترنا ما يودون لنا
أن نختاره في كل مرة

تابعت القراءة وأنا أشعر بالغضب والألم والقرف
 اتجاه ما كنا عليه ومازلنا متمسكين به رغم
 انحدار الأمور نحو الهاوية ..

" توقف الزمن وسافر بي إلى مدينة الذكريات،
 تجولت بجميع أزقتها ودرت حولها، شارعاً،
 شارعاً، دخلتها بيتاً، بيتاً، لعبت في أزقتها وركضت
 خلف أسوارها، نعم اليوم رأيتك
 كانت رؤيتك بمثابة قطرة المطر الأولى بعد سبع
 سنين عجاف، على أرض قاحلة ... كانت رؤيتك
 بمثابة انتصار في حرب لم تبدأ بعد ... كأن السماء
 تلونت كقوس قزح .. لبرهة ظننت أنني أطيّر، لا
 أعلم ما كانت تلك الضجة أ ضربات قلبي أم انهيار
 مدن الذاكرة في رأسي ...
 لم أتوقع رؤية وجهك هذا، لقد كنت اتابع الأخبار
 لا أكثر وإذ بها تتحول إلى لحظة فردوسية بإطلالة

وجهك الساحرة على الشاشة، وأنت تنالين تكريماً
على أحد أبحاثك، باهرة، جدية، وعظيمة كما
كنت
قضيت ثلاثة أيام أتأمل تلك الصورة رغم عدم
وضوحها ... لا أعلم مدى قدرتي
////////////////////
'لما عالباب يا حبيبي ... نتودع
بكون الضو بعدو شي عم يطلع '
وشو خفت//////////////////// " "

"مرت شهور على رؤيتي لوجهك الجميل، كيف
حالك مجدداً، اقترب موعد العودة إلى دمشق
رغم تحذير اقربائي لي قائلين لا يجب عليك
العودة فالأوضاع تسوء هنا، كيف لي أن أبقى هنا
و دمشق تحتاج وجودي، لا أقدر على ترك دمشق
وحيدة، لقد كان أبي جاداً بكلامه حول عدم
العودة، لقد كانت جميع الأخبار تنذر بالسوء، رغم

كل هذا لم ولن استمع لهم، سأعود في ذلك التاريخ، علك تعودين أيضاً، هل ما زلتى تتذكرين وعدك لي باللقاء في دمشق نهاية هذه السنة، مر الكثير من السنين على هذا الوعد، أتساءل إن غطاه الغبار فما عدتي ترينه بعد الآن، أما أنا فأرتقبه منذ 5 سنوات، لا يمكن وصف ما أشعر به، لقد خسرت الكثير، أعلم أنك حزينة الآن على الوطن، فقد كنت من أشد الناس حباً لبلدهم، كوني صبورة، مجرد غيوم سوداء وسترحل ... "

" أيعقل أن تدمر بلادنا هكذا... ما الذي يحصل، غافلنا الهموم، اليوم أتلقى أخباراً تدمر كياني، خسرت صديقي في الحرب، لقد مرت فترة على خسارتي له إلا أنهم لم يخبروني بهذا حتى اللحظة، أظن انهم يحاولون إقناعي بعدم العودة، لقد رحل دفاعاً عن الوطن، لم يعد البكاء يجدي، لم يعد يجدي، لا أقدر على الكتابة كما في الوقت السابق، إنني أهزم أمام هذه الحياة، ذكرياتي

السابقة تجتاحني كالجيوش الثائرة والذكريات الجديدة لا تضيف سوى لمسات الألم والقهر إلى السابقة، ماذا أفعل، كوني بخير أرجوك ... "

لم أملك الكثير لأشعر به اثناء قراءتي، وانتقلت إلى بقية أوراق الفتاة... مسرعاً كنت انتقل بين مجموعتي الأوراق كطفل يتعلم المشي مستنداً إلى أحد الأسوار، يمشي حتى نهاية الطرف الأول ثم يعود إلى الطرف الثاني مكرراً ما يفعله حتى تحين اللحظة التي يتجرأ فيها ليتترك هذا السور وينطلق ماشياً... وحده دون مساعدة .. أرجو أن أكون قادراً على المشي في نهاية الأمر.

" ولكن ...

لابد أن أسقط فلا صلاة تكتمل بغير ركوع حين تصبح مرافيح الذكريات محطات ألم وتغدو أشواقنا مدعاة حزن وحسرة، فأى حياة هي هذه . قد تقتل إنساناً فتدخل السجن، لكن أن تقتل

ذاتك، أي سجن هذا الذي سيحتويك، أن تكون
مجرماً بحق قلبك فتسجن في فوضى ذاكرتك ..
كم كان الحزن بعيداً حين كنا في دمشق، هل يعقل
أنا صنعناه بأيدينا، لا زلت أجهل سبب كل شيء
حصل أحاول إيجاد الأجوبة ..

أتابع مباراة لفريقك المفضل اليوم بشغف تام،
رغم كرهى السابق للمباريات إلا أنني اليوم انتظر
موعدھا، معرفتي بقيامك بهذا الأمر أيضاً تجعلني
أشعر بالراحة ، هل يعقل أنك حاولت أن تقرأ
كتاباً ، فأنا أحاول بكل
////////////////////////////////////

'يا قمر الحلوين، يا زهرة تشرين..بعدك على بالي'"

فيروز ورسائل القدر الجميل، كل ما نفشل في
التعبير عنه تجد له فيروز أغنية تتحدث بها نيابة
عنا بكل بوضوح ..

تابعت ...

"

بيتهوفن، ضوء القمر

أراقب السماء الليلة وانتظر شهاباً عابراً بفارغ
 الصبر، لقد مللت الانتظار وعدم القدرة على فعل
 شيء لكل ما يحصل، لقد يأسست من المحاولات
 الفاشلة في العيش كشخص طبيعي، لا يسعني
 وصف السوء الذي أشعر به في هذه اللحظة ...
 أحاول تجميل الأمور بتذكرك، كان تذكرك منذ
 أشهر سبباً للألم، لا أدري كيف هذا، أما الآن
 فذكرياتنا القديمة المؤلمة سابقاً غدت أرحم
 وأجمل من الذكريات الدموية التي تحاول التغلب
 على الماضي .. كأنك القمر لا السمفونية ..."

'انتظر شهاباً عابراً بفارغ الصبر'
 يبدو أن أحدهم أحتاج أيضاً التمسك بأي شيء
 ليشغل به نفسه عما يحصل، كم كانت الأمور
 بسيطةً لو أن الشهاب السابق استمع لنا، لكنها
 الحقيقة لا يمكن حصول هذا ..

نحن فقط نحاول دفع الذكريات بالتمسك بالأمور
 الغير المنطقية، ونحن نأمل.. أن تحدث معجزة ما .
 إن المعجزات لا تقتضي إحياء ميت أو الطيران
 عالياً فقط، نحن معجزة قائمة بحد ذاتنا، تفاصيلنا
 العابرة معجزة، لقد شارفنا على الموت في أحيان
 كثيرة إلا اننا نظرنا إلى الأمر على أنه شيء
 روتيني بسيط ..

المحبة...معجزة هي الأخرى فالمعجزات خلقت
 لتجعلنا نؤمن بالمستحيلات، بعض الأشخاص
 معجزة تعبر حياتنا في فترة معينة، تعطينا درساً أو
 تلقي لنا بجملة أو عبرة ما... تدور حولها أحداث
 حياتنا حتى نهاية الأمور، تلك المحاور التي نجبر
 على الدوران حولها، غير قادرين على نزعها

مهما بلغ صغرها إلا أنها معجزات تدفعنا إلى
البقاء، ونحن لا ندرك هذا بعد ...
وحين ندرك الأمور يكون الوقت قد انتهى ...

من الرائع محاولة أحدهم تجميل يومه بتذكر
تفاصيلك وما يتعلق بك، عندها تكون أنت معجزة
دون أن تدري، جميعنا أبطال في قصص واقعية
حقيقية سواء علمنا أم لا، جميعنا نملك معجزات
بين أيدينا تنتظر الوقت المناسب للتحقق، فلا فائدة
من معجزة موسيقية لأناس أصماء لن تجدي أي
نفع، لن يكون لها قيمة، وهكذا نحن، معجزات
على قيد الانتظار ...

تابعت مجدداً بعد سفري في أفكاري لبرهة ...

" أخبار الحرب باتت تسيطر على مجريات الأمور
 أين أنت؟! كن بخير ، كما عودتني في رسائك كلها
 أن تختتمها في النهاية بقولك 'كوني بخير' لذا
 أرجو منك في هذه المرة أن تكون بخير ..
 أشعر أن هناك أمراً ما سيء...
 أتمنى أن تتجاوزه بأسرع وقت ...
 لبياض عينيك السوداوان سلام

ما زلت أحاول النهوض ..لقد انحنيت من كثرة
 الخيبات في السنين السابقة، والآن تأتي الحرب
 لتدمر ما بقي من أشلاء في الذاكرة المحتلة
 بـماضٍ بعيدٍ أقرب إلينا من ذاتنا "

" //////////////// كل شيء مشتاق لك حتى
 الأماكن التي لم تعرفك بعد، لقد تذكرت أغنية
 'الأماكن' لو كان بإمكانني إرسالها لك في هذه
 اللحظة، لربما تحصل معجزة ما، قبل أن تصل
 إليك، إلا أنني لا أقدر على إرسالها أبداً ..
 ولأن بعض الهوى لا يقبل تأجيلاً
 كما قال كاظم يوماً ...
 فسلام عليك أحببتك وعلي السلام فيمن أحب.
 ما زالت أوضاع الوطن تخيفني .. وما زلت أصر
 على العودة في تاريخنا المحدد منذ سنوات، لا
 أعتقد أنك ستذكره، إلا أنني سأشعر بالرضا إن
 عدتُ في ذاك اليوم وحدي لا بأس، فلا انتظر
 منك القدوم، بقدر ما أتمنى قدومك .. وكما
 أصبحنا نعلم فالأماني لا تشترط التحقق يا
 صديقي ..."

'كما أصبحنا نعلم !!؟؟'

لم نكن مدركين للأمور في أزمنة سابقة، جميعنا
 كنا نجهل الكثير، إلا أن مرور الوقت يكشف مالم
 يفهم، كأن الحياة شرنقة لإحدى الفراشات ذات
 اللون المجهول والمعالم الغامضة لحين تشقق
 الشرنقة وخروج الفراشة والزمن كفيل بضمان
 تشقق الشرنقة بل وسلخها بقوة عن تلك الفراشة
 المرتقة ...

أذكر أيامي في ربيع قرينتنا، وتلك الفراشات التي
 زينت الحقول، وأمي وأبي، وأخي الذي يدفعني
 على الأرض محاولاً ضربي كنوع من مزاحه
 المعتاد معي... وركوة القهوة القادمة نحونا من يد
 أمي وصراخ أبي المستمر حول الحذر اتجاه
 المزروعات، كم تمنيت أن أكون حذراً اتجاهه ..
 منذ أيام كنت أملك حقلاً مليئاً بالسنابل، والآن تم
 حصاده بيد القدر، بكل برود تم انتزاع سنابلي من
 حقلي ...

كم تمنيت رؤية حقلي يتحول إلى قمح ثم إلى
 رغيف، إلا أن يد القدر حصده قبل الأوان ...
 لم يكن ناضجاً بعد، فقامت برميته على أحد مفارق
 الحياة بكل عنف ...

لم يتبق الكثير من الأوراق الصالحة للقراءة، بقي
 بضع أوراق فقط رغم عددها القليل وحروفها
 المهمشة والمدمرة إلا أنها كانت كافية لتخبرنا
 بكل ما حصل، كانت كافية لتجعلني أعبّر إلى بعد
 آخر من إنسانيتي الغير مكتشفة، تابعت الاطلاع
 على الأوراق الأخيرة للشاب وقرأت :

" أشعر بالعار من نفسي ..لم أكن قادراً على تغيير
 شيء في الماضي ، والآن أيضاً لا أقدر ،
 ماكل هذه العقوبات، ماكل هذا الأسي، خسارتي
 كبيرة بلادي ، أنت ، وكل شيء ...
 قالوا أن هناك أمرين يستحقان الحروب ..
 الوطن وامرأة ..وها أنا ذا أخسر الاثنين معاً أو
 بالأحرى خسرت واحدة والآن أقف على مشارف

خسارة الأخرى ..
 لم أكن قادراً على الحفاظ على الماضي إلا أنني
 سأعود محاولاً الحفاظ على وطني، لربما وجودي
 لن يغير المجريات الحالية، إلا أنه سيصنع فرقاً ..
 مهما كان بسيطاً ..
 'والأحلام شو كبرنا أحلام' "

" 'يوم كأيام لذات لنا انصرمت
 بتنا لها حين نام الدهر سُراقا'

مازالت الأمنيات تحاول التحقق، إنها تحاول
 بأقصى ما تملك، إلا أنني أشعر بالخضوع لكل
 شيء، لقد انهارت أساسات مباني الأحلام في
 داخلي، اقترب موعد الانهيار ،
 لست حزينا فلم //////////////// هذا كل ما بقي ،
 وللأسف فهو على وشك الرحيل ، اقتربت العودة
 ولا يسعني سوى المحاولة في اقتناص لحظة
 مميزة لأدعو بها ...

لعلها لحظة استجابة تحقق المستحيل ، وحتى لا
أنسى دعيني أخبرك أنني نسيت أن أنساك "

'الأمنيات تحاول بأقصى ما تملك'
يا له من تعبير ، هل يمكن لأمانينا أن تساندنا
حين نحتاجها، لو كان بإمكانها لحضرت إلينا بكل
بساطة، تابعت ...

" اقتربت العودة ..

أعد الدقائق والثواني التي تفصلني عن اللقاء
بأرض الوطن، لا يهم ما أراه ، إن كنت أعارض أو
أؤيد الأفكار التي تحاول فرض ذاتها على وطني، ما
يهم هو الوطن بحد ذاته، لا ما نريد أن نفعله به،
بإمكاننا التصحيح عندما نريد، لكن عندما تدمر
الشيء فهذا يعني أنك منذ بداية الأمر لم تكن
تنوي إصلاحه.../////////////////////
هذا العمر ثقيل علينا وهذا الزمن أسوأ من أن
يعاش فيه ، أتجنب ذكرك كما أتجنب عدم

نسيانك، إلا أن هذا ليس بالأمر السهل ...
أظن أنه علي الترفع عن ذكرك هنا أيضاً فلا أجد
هذا الأمر لائقاً بك ...

'يا عصفورة بيضا لا بقا تسألني' "

كان كلامه محققاً لا يهم ما نراه أو ما نسعى
لتحقيقه، إن كنا سندمر ما بين أيدينا، كل شيء
ثقيل علينا يا صديقي وليس العمر فقط،
الذكريات، ثقيلة هي الأخرى .. تابعت ..

" لا يفيد الندم ...

فالنادمون خسرو القدرة على التأثير في ماضيهم، لا
يسعنا نحن النادمون سوى المضي قدماً ... كأننا
عبرنا عبر جسر إلى منطقة ما ثم قطعنا حبال هذا
الجسر لتستحيل العودة ...

عليّ المضي قدماً إلا أن الاستمرار ليس الخيار
الوحيد، فلربما حاولنا العودة بالقفز إلى الضفة
السابقة ...

عندها ستكون النهاية ...

إما أن تستمر أو تنتهي بإرادتنا ..
 'يا حبي اللي غاب من عمري أنا' "

أجل لقد خسرنا فرصتنا بالتأثير في الماضي، إلا أنني لا زلت أجهل إن كان بإمكانني المضي قدماً، لا زلت أريد العودة إلى الضفة السابقة حيث أخي الغاضب من سجائري وأمي التي تمشي نحوي كي تحتضني عند قدمي وأبي الذي يربت على كتفي مثنياً عليّ ...

لا أعلم إن كان ما حصل بإرادتنا .. فما حصل لي لم يكن بإرادتي بتاتاً ولا أظن أن ما حصل لهذين الشابين كان بإرادتهما ... تابعت ..

" كتاباتي الأخيرة ...

أشعر بالنهاية رغم عدم بدايتي الجديدة، لربما البداية السابقة لم تنتهي بعد، أعيش تساؤلات كثيرة لدرجة أنني لا أود ذكر أي شيء، لا أود خوض أي نقاش أو التحدث بأي تفصيل ...

اليوم وأنا أجلس على كرسيّ اقرأ كتاباً سمعت صوت تحطم، ذهبت لأرى .. وإذ به متحولاً إلى أشلاء، ذاك الكوب الذي أهديتني إياه، لم أجد أي سبب جعله يسقط، لربما الذكريات قد ملت ما يحصل وأرادت أن تنتقم مني فدفعت به للأسفل، لمت أشلاءه بيدي، كنت واثقاً أنني لن أُجرح من شيء يحمل وجودك وهذا ما حصل، لم أقدر على التخلص من البقايا المتكسرة، فخبأتها في علبة صغيرة في أحد الخزانات ، مثقل بالذكريات كيف لي أن أمشي بخفة ،،،، "

" التدوين ما قبل الأخير ...
 في الحقيقة لم أرد تدوين أي شيء الآن، لم أرد أي شيء، أرتقب فقط، أنتظر مرور الوقت ...
 أريد لهذا الوقت أن يمضي فقط، لا آبه بما سيحصل بعد الآن، إلا أن أسوأ مخاوفي حدثت بالفعل، فلم أخاف ؟؟؟!! "

لم يعد هناك أية أوراق سليمة بشكل واضح
للشاب فالورقة الأخيرة خط عليها عنوان فقط ...

"على طريق الختام ...

محللاً نحو بداية نهاية كل شيء"

أما بقية الأوراق فهذه بعض الجمل التي استطعت
فهمها، لكن لا ادري في أي وقت أو ترتيب تمت
كتابتها، كان الوقت مجهولاً .. من بعض تلك
الجمل الناجية كانت :

*أخاف العودة ...أخاف النجاة

*ذكرياتي تبني لها صروحاً في رأسي ما زلت لا
أصدق ما يحصل

*أقف على الحافة منذ رحيلك والآن دمشق
تتكفل بإسقاطي نحو الهاوية

*كوني بخير ، وعودي في التاريخ المرتقب

* أشعر أنني أسافر عبر الزمن نحو الماضي ، رغم معرفتي التامة بتغير الحاضر ..

* أريد لرؤية وجهك أن تكون عزاءً لكل ما حصل ويحصل ..

* استحضر ذكرياتك الآن ، لكن هذه المرة بإرادتي ، كنت استحضر التفاصيل وأعيد الماضي طوال الطريق

* صرنا القصص الغريبة .. لقد صدقت فيروز حين غنتها

* سجية مغرم ..

* أمر باسمك ، ويستوقفني طيفك في كل زاوية

ولأن.... لكل حكاية وجه آخر لا نعلمه
 سأتابع سرد أحداث تلك الأيام التي تلت الحادثة
(حين كانت ذاكرتي لا تزال مشوشة وكنت لا
 أزال أجهل تفاصيل الأمور ، كنت أعاني من
 التأثير النفسي الشديد لتلك الواقعة...)
 وبعدها سأروي لكم بقية الأوجه التي غابت عني
 في الأيام القليلة الأولى لما حصل ... ذلك الوجه
 الخفي الذي كان جواباً على كل تساؤلاتي السابقة
 التي ذكرتها ..

لم أعاقب!؟

هل استحق ما يحصل!؟

تابعت قراءة ما تبقى من أوراق الفتاة ...
 كان لا يزال هناك عدة أوراق فقط .. فقد كانت
 مفكرتها ممزقة بشكل يفوق مفكرة الشاب ...

" نسينا الحزن شوقاً للغد الأفضل ...

لا لم ننسى بعد، هنالك فاصل شبه خفي بين
 النسيان والتذكر، يزيله أدنى تفصيل، حين ننسى لا
 ندرك هذا، ولكن عندما تمر بنا ذكرى عابرة تعيد
 ما نسيناه عندها فقط ندرك أننا كنا تحت قيد
 النسيان ...
 سلام عليك "

" اليوم على غير العادة ..

أتذكر عائلتي، أين هم الآن، وأتساءل دوماً هل
 كنت استحق ما فعلوه، هل يستحق الاختلاف
 كل هذه القسوة، لا أدري إلا أنني أتمنى أن يكونوا
 بخير في كل وقت وفي أي مكان ...

الاختلاف أمر محير، فعند حديثك عنه تشعر بالجميع يدفعونك نحوه، فالتكرار قد بات قاتلاً، والتقاليد مجرمة، وعند اختلافك يرمونك بكل ما أتيج لهم من قوانين تمنع تغييرك، هل كان الحديث عن الأمر مجرد كلمات عابرة، لم نخدع أنفسنا إن كنا ندرك استحالة تقبلنا للأمور، لم نمح آملاً لا يمكن أن نجعله يتحقق، ألا يجب أن يعاقب القانون على هذا، لم نعاقب نحن الحالمون دوماً، لا زلت أجهل هذا، أتذكر قولك لي عندما طرحت هذه الفكرة عل مسامعك فأجبتني قائلاً:

'كيف لهذا أن يحصل، فحصوله يعني عدم وجود مشرق ومغرب، هه ياله من سخف يا عزيزتي، لا يمكن الوقوف في وجه سيل من تقاليد عمرها آلاف السنين لا يمكن، الزمن ينتصر دوماً'

لم أعلم أنك تدرك هزيمتنا المحتومة إلا في تلك اللحظة... أظن أنك كنت محقاً.. أو لربما كنت مخطئاً... على كافة الأحوال ... لم يعد ذلك مهماً

الآن فقد حدث ما حدث ... "

حين كنت أقرأ الأوراق الأخيرة للفتاة كنت ما زلت مشوشاً وتحت تأثير صدمتي النفسية و رحلتي الإنسانية الذاتية في داخلي ... لم أكن بعد قادراً على ربط الأمور بالواقع .. كنت متعاطفاً بكل ما أملك مع تلك الأوراق بين يدي ... لم يخطر في ذهني أبداً أن اسأل نفسي هل كنت حقاً سأتعاطف مع هذا الأمر لو كانت الفتاة احدي أقربائي .. لم يخطر بذهني هذا الأمر حينها البتة كنت لا أزال أتابع قراءة الأوراق بصمت ودهشة تامة كما كنت حين بدأت أتطلع على المفكرتين...

" كل شيء يقلقني ...

أحاول نسيان الأمور لكنني لا أقدر على هذا ... كيف حالك ... هل مشابه لحالي أم أفضل !؟ لا أتمنى أن يكون حالك أسوأ ...

ما زلت أصر على العودة... رغم خوفي الشديد
 منها... أحاول تذكر وجه أخوتي، وجه أمي.. وأبي
 الذين لا أدري إن كانوا سيتذكرون وجهي...!!
 أشك في تعرفهم عليّ إن قابلتهم مصادفة في أحد
 الشوارع.. شيء لا يوصف أن يتخلى عنك من
 جعلوا منك ما أنت عليه ..

التخلي جريمة... إنها جريمة بالفعل كان بالإمكان
 التوصل لحلول... دون التفكير مطلقاً بالتخلي،
 لم يكن التخلي الخيار الصحيح في أي أمر كان...
 سواء الآن أو بعد آلاف السنين... التخلي ليس
 خياراً يمكن أن يتاح أبداً، إنه لجرم كبير أن يصبح
 خياراً، بالأخص المقربين... فحين يدرك شخص ما
 مدى حبك له وتعلقك به، وتأثرك الشديد
 بوجوده ثم يتخلى عنك... يجب أن يسجن،
 يجب أن يعاقب لا يمكن أن يكون هذا الأمر
 مقبولاً أبداً...
 سلام عليك... "

" نملك الخيار دوماً، وخياري العودة لأنهي ما بدأ
سأقابل عائلتي وسأصرخ أمامهم بنتيجة التخلي
التي فرضوها عليّ طوال تلك لسنين ،،
سأحكي لهم عن نجاحاتي الباهرة التي كان من
الواجب عليهم مدحها والثناء عليّ بها ...
عن كل انتصاراتي في الحياة رغم كل ما حصل،
عن الخيبة التي رموني بها ..
وعن كل ألم أضافوه لتفاصيل العمر الذي لا أعلم
عنه سوى أنني تمنيت مروره فقط ..
وعن الفخر الذي يجب أن يشعروا كوني ابنتهم،
عن كل هذا سوف أتحدث ..
وعنك أنت أيضاً ، أظن أن لك نصيباً من الصراخ
لنكن عادلين ... عن كل ما مضى ويمضي وسيمضي
وبكل ثقة أعلم أنه كان بالإمكان إيجاد حل لكل
هذه المآسي .. إلا أنهم رفضوه ... ما زال الأمل
خياراً على ما أعتقد .. ///////////////"

حين كنت اقرأ ما تبقى من مفكرة الفتاة كنت متأثراً وخائشعاً لكل حرف بين يدي .. كنت متعلقاً بتفاصيل أجهل صاحبها تماماً .. كانت تلك الورقة الأخيرة ذات الكلام الكثيف في المفكرة .. وما تبقى مجرد اقتباسات من بعض الأغاني والكتب و بعض الجمل الناجية أيضاً .. كان منها:

* ننحني لنحاول الثبات، لكن الأقدار تسقطنا مرغمين .

* أما من جيش من النسيان يفك حصار هذه الذاكرة .. أما من واقع شجاع .. أما من ذاكرة أخرى؟!

* أدنى الأفراح باتت ترضيني ... ككوب قهوة مثلاً...

* 'هو زهرتي التي لا تيبس
 إقحواني .. والعنبر
 هو تراويل الكنيسة
 هو صيحة الله أكبر'

* حين قررت الحياة لم أجد الحياة تقرني .

كانت تلك العبارات نهاية القصة عند الفتاة ... لقد
 انتهيت من قراءة الأوراق التي رمى بها القدر
 بين يدي وحين انتهيت جلست أفكر بما قرأت
 وأفكر بما حصل، كانت أفكارى تائهة بشكل لا
 يوصف، أخذت الأوراق بعناية ووضعت كلاً
 منها بعلبة و وضعت العلبتين على الطاولة أمامي
 ثم جلست كأني فارغ .. من كل شيء، كان
 شعوراً لا يوصف أيضاً حينها ... رغم صعوبته
 و قسوته إلا أنني تمنيت لو أنه لم ينتهي ...

لأنني حينها أدركت بلحظة خاطفة مرت بجسدي
كقشعريرة فائقة القوة، كأن جسدي انتفض بصعقة
تيار كهربائي شديد كأن العالم بأكمله سقط على
صدري ..

كنت أشعر دوماً أن هناك ما ينقص، أن هناك
حلقات مفقودة في كل ما حصل .. لم أملك أدنى
فكرة حتى هذه اللحظة ..
كنت واثقاً أن الوجوه مألوفة وأن القصة مألوفة،
كنت أشعر أن بعض التفاصيل تخبرني وتقول إننا
نعرفك جيداً ... فهل تذكرتنا...؟؟!!

لكل شيء سبب مقدس دفعه للحصول ...
وهنا تكمن الحقائق

كما قلت سابقاً ...

لكل حكاية عدة أوجه قد لا ندركها بسهولة،
اليوم وأنا أمشي بين القبور... قبور أولئك الذين
قضوا في التفجير الفظيع الذي ضرب دمشق ذلك
اليوم... اليوم الذي بدأ فيه كل شيء ...
هنا حيث أعيش الآن في المقبرة ... نعم فقد بت
حارساً للمقبرة التي احتضنت أجسادهم، لقد بنيت
لي غرفة داخل سور المقبرة هنا وأصبحت
حارسها منذ أدركت ما حصل وأنا أجلس محتلاً
الذاكرة و مدمر الكيان أنتظر النهاية بكل هدوء .

اللوحه الأخريرة للقدر

نعم يا سادة فهناك ما لم أتحدث عنه بعد ...
إليكم اللوحة الأخيرة لهذا الفنان المدعو القدر
يا لها من حياة ... لا شيء يفلت من بين براثن
القدر يا أعزائي لا شيء

لقد كنت أعمل كرجل أمن في أحد شوارع دمشق
المزدحمة المجاورة لمنزلي...كانت مهمتي التأكد
من أن السيارات العابرة خالية من أي شيء غير
قانوني، لا زلت أتذكر تلك السيارة البيضاء رغم
لونها الأبيض إلا أنها حملت سواداً حالكاً...حين
عادت ذاكرتي وعادت التفاصيل وأزيل الغبش
عن التفاصيل الغير واضحة ... تذكرت أثناء
توجهي نحو عملي تلك السيارة التي رأيتها تتجه
باتجاه الحي الذي تسكن فيه عائلتي، لقد عرفتها
بالفعل وكيف لي أن أنسى ذنبي الذي سيظل
يلاحقني مدى الحياة ... ورزمة النقود تلك التي
تقاضيتها لتسريع دخول تلك السيارة من الحاجز
الأمني الذي كنت مسؤولاً عنه...رزمة الموت
والعقاب التي لو استطعت العودة إلى لحظة

إمساكي بها لقطعت يديّ بدون أدنى تردد ...
حين تتضح الأمور ندرك أننا مجرمون لم نكن
ضحايا قط ... وأما بقية الوجوه يا سادة فسأكتفي
بأن أقول أن هناك فرداً ناقصاً لم أذكره في البداية
لأننا طردناها من عائلتنا ...
منذ 5 سنوات تقريباً تخلّيت وعائلتي عن أختي
التي اقترفت ذنباً بنظرنا بأن خالفت ما تعودنا
عليه في أسرتنا ...

اثناء عبوري إلى مكان عملي ذلك اليوم، حين مر
 ناظري بالشاب والفتاة شيء ما سحبني بقوة
 نحوهما شعور غريب، ودافع مجهول جعلني
 أجمع تلك الأوراق، يا للعار الذي أشعر به... لقد
 نسيت وجه أختي يا له من فخر، لقد كانت أمامي
 لقد مررت بها بكل برود دون أن أعرفها،
 كل تلك الأوراق والأحداث والذكريات باتت
 تقتلني... لقد قتلت عائلتي، لقد كنت سبباً في
 موت من حولي.. لقد خنت ذاتي وإنسانيتي إنني
 المجرم الوحيد في هذه القصة... ما كل هذا العار
 الذي يأكلني ليل نهار...!!!

حين أدركت الأمور على حقيقتها... لم أدري ما
 الذي يجب أن أفعله... انتظرت أياماً كاملة جالساً
 على كرسيّ في المنزل منتظراً رجال الأمن أن
 تفتح هذا البيت و تعقلني لما فعلته...
 كنت أتمنى هذا... إلا أنه لم يحصل، لربما لم
 يكشفوا بعد الحقيقة وكيف لهم أن يشكوا في
 نزاهتي التي عودتهم عليها طوال حياتي،

كنت شريفاً مع أبسط الأمور، إلا أن النزاهة لم تكن محور الأمر بل حفاظك على كونك نزيهاً لبقية حياتك كان القضية الأساسية طوال الحياة وأنا فشلت في هذا، أحمل الآن ذنباً لا يغتفر و أعاقب عليه عقاباً مميتاً ..

نجاتي من تلك الحادثة و إمساكي الأوراق، وتعلقي بالأحداث ثم إدراكي لكل ما حصل، ذاكرتي التي احتلت بالذنوب تعاقبني على الدوام، تقتلني عدة مرات في اليوم، يا لي من إنسان شقي وبائس و عديم القيمة، كم انتظرت أن أعتقل، كم انتظرت أن تحين النهاية بسرعة، لكن عقاب السجن لم يكن ليرضي عدالة القدر، فعوقبت بكل هذا البؤس والألم والذاكرة التي لا ينقصها أدنى تفصيل مما حدث كأنها خلقت لتخزن الأحداث لتحاكمني اليوم لبقية حياتي، لقد سجنت في ذاتي، وأعدم كل ليلة آلاف المرات.

بعد انتظاري أياماً كثيرة لرجال الأمن الذين لم
يأتوا ... خرجت محملاً ببؤسي الشديد نحو
المقبرة التي دفن فيها من قمت بقتلهم، أنا قاتل
بالفعل تعريت عن نزاھتي للحظة فخسرت كل
شيء، النزاھة شيء لا يجوز التخلي عنه، بمجرد
تخليك عنها ولو فكرةً فقد تخليت عن إنسانيتك
وَجُرِدْتَ منها، أجالس القبور في كل يوم من
الصباح حتى المساء وأستيقظ لألقي عليهم جميعاً
تحية الصباح دون أي استثناء، ثم أَحَدْتُ أطيافهم
المتخيلة و أعتذر عن كل شيء، على الرغم من
معرفتي أن الاعتذار الآن غير مجدٍ البتة إلا أنني
كنت أعتذر وأبكي بكل ما أوتيت من حزن وبؤس
وشقاء، ثم أتوجه إلى نهاية المقبرة حيث يوجد
قبرين دفنت في الأول أوراق مفكرة أختي
وضعت شاهدة لا تحمل أي شيء سوى جملة
تقول :

'عليك السلام وعلّي الذاكرة'

ودفنت في القبر المجاور مفكرة الشاب....
 لم يكن يبعد سوى أصبعين لا أكثر وكتبت على
 رخامة القبر الفارغة ...

'عليك السلام وعليّ الاحتلال'

لو قدر لقصتي أن تكون رواية، لأسميتها ذاكرة
 محتلة، يخالني الناس مجنوناً، على مدى السنين
 التي مرت لم أخبر أحداً بأي شيء، لقد كنت
 أصماً بالفعل إلا أنني خسرت قدرتي على التكلم
 أيضاً بعد عدة أيام من انتقالي للعيش بين قبور
 الذنب الذي سأحمله ما حييت بين قبور الذاكرة
 التي تنهشني ...

كانت نظرات أقرباء المتوفيين تنم عن غرابة
 تامة، فلم أكن أعرف أيّاً منهم باستثناء قبور
 عائلتي، أظن أنهم شعروا بالتعاطف اتجاهي إلا
 أنني لا أستحق هذا لا أستحق أن ينظر لي بشفقة
 أو عطف إنني مجرد مجرم يعاقب على ذنب لا
 يغتفر لبقية حياته ليس إلا، وحين شعرت باقتراب

نهايتي في عمر يناهز المئة عام على ما أظن،
 كان الجميع يتعجب كيف لرجل مثله أن يحافظ
 على قدرته على الرؤية والكتابة، أظن أنهم كانوا
 يحسدونني على ذلك دون إدراكهم للأمور، كما
 كنا وسنكون أصحاب نظرة سطحية نحكم على
 الأمور بما يظهر لا أكثر، هناك قول :

' حين تملك ذاكرة قوية '

وذكريات مؤلمة فأنت من أشقى أهل الأرض'

هذا ما كنت عليه، إلا أنني أستحق ما حصل
 أكتب اليوم وأنا أرتمي إلى جوار القبرين في
 نهاية المقبرة التفاصيل التي لا يدركها أولئك
 السطحيون الذين جاؤوا يقدمون لي الماء والطعام
 على مدى السنين السابقة، كنت أرميه في
 وجوههم لأنني لا أستحق هذا لا أستحق، اليوم
 أخبر قصتي وأوضح بؤسي وشقائي بهذه المفكرة
 التي سأتركها ليجدها أحد ما فيعرف الحقيقة
 ولأنني انتظرت النهاية كثيراً ولم تأتي، ولأن
 الحياة كانت مصرةً على عقابي وكانت محقة
 فإنني أستحق، اليوم وبعد عيشي لفترة عقوبتي
 أود أن أنهى هذه الذكريات التي تحتل ذاكرتي ...

سأتجرع هذا السم الذي حاولت مراراً وتكراراً أن
أشربه في وقت سابق إلا أنني لم أقدر فلم أعاقب
كما أستحق بعد، وحين تجرأت وشربته قبل 7
سنوات من الآن عثر علي أحدهم وأنقذني، لم
يعلم حينها أنه حكم علي بالموت من جديد، اليوم
وقد مللت انتظار العقاب الأخير أخذت قراري
بابتلاع هذا السم... قبل أن أشربه سأوصي بشيء
لمن يعثر على مفكرتي... بأن يحرق جسدي فلا
أستحق أن أدفن لا أستحق... هذه الطريقة الوحيدة
لفك احتلال هذه الذاكرة... كفوا عن السطحية
السادجة أعزائي ..
وداعاً... أعتذر للمرة الأخيرة عما اقترفته يداي .

معلومات حول هذه المفكرة التي يجهل كاتبها :

"تم العثور على هذه المفكرة بجوار جثة متحللة لم يتبق منها سوى العظام، حيث قدم أحد الأشخاص بلاغاً بوجود جثة بجوار أحد القبور بعد اشتباهه بسبب الرائحة القوية التي كانت تملأ المقبرة عند زيارته لقبر جده وتم العثور على الجثة التي يرجح أنها للعجوز حارس المقبرة كما وضحت المفكرة المرفقة بجوار هذه الجثة .. وتم الموافقة بعد عناء شديد و القيام بالإجراءات الأمنية والموافقات الحكومية على السماح بنشر محتوى هذه المفكرة كرواية كاتبها مجهول... بأن تم اشتراط إيراد هذا الشرح في نهاية الرواية فلم يتم العثور على أي اسم أو أي وثيقة تدل على هوية هذا الحارس حتى اللحظة، وتم تأكيد الأحداث التي ذكرها الكاتب المجهول وتم إعادة فتح ملفات التفجير الذي تم ذكره وإضافة ما أعترف به إلى مجريات الأحداث.

وكانت المفاجأة أن هناك مشتبهاً به كان يعمل
إلى جوار هذا الرجل، و بحسب الاستنتاجات
التي بين أيدينا فقد حكم عليه بالسجن مدى
الحياة بتهمة إدخاله السيارة التي تسببت
بالتفجير و تهمة تقاضي رشوة، وقد توفي منذ 10
سنوات في السجن، تم إرسال تعويض مادي كما
تم تقديم بيان اعتذار رسمي لجميع أحفاده
بالإضافة إلى تعويضات عديدة .

دولاب القدر لا يتوقف، لكنه يبطل في بعض
الأحيان ليس إلا.

تمت...